ألبرتو ميندیس

أزهار عبّاد الشمس العمياء

رواية

ترجمة: عبد اللطيف الباري

ألبرتو ميندیس

أزهار عبّاد الشمس العمياء

ترجمة: عبد اللطيف الباري

مسكيلياني

أزهار عباد الشمس العمياء

عنوان الكتاب الأصليّ المعتمد في هذه الترجمة

Los girasoles ciegos
Alberto Méndez

الكاتب: **ألبرتو مينديس**

عنوان الكتاب: **أزهار عبّاد الشّمس العمياء**

ترجمة: **عبد اللّطيف البازي**

تدقيق وتحرير: **رضا الحسني وشكري الجميعي**

تصميم الغلاف: **الشاعر محمّد النبهان**

خط الغلاف: **الفنّان سمير قويعة**

تنضيد داخلي: **سعيد البقاعي**

ر.د.م.ك: **978-9938-24-005-4**

الطبعة العربية الأولى: 2018

© Editorial ANAGRAMA, Barcelona, 2004.

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإميل: masciliana_editions@yahoo.com

إهداء خاصّ من المترجم

إلى الغالية فاطمة الزّهراء
شكرا لأنّك في حياتي

الفهرس

- **الهزيمة الأولى:** 1939/
أو لو كان القلب يفكّر لتوقّف عن الخفقان... 11
- **الهزيمة الثّانية:** 1940/ أو مخطوط عُثر عليه في طيّ النّسيان ... 41
- **الهزيمة الثّالثة:** 1931/ أو لغة الأموات 65
- **الهزيمة الرّابعة:** 1942/ أو أزهار عبّاد الشّمس العمياء ...117

«يقتضي التجاوز تحمّل المسؤوليّة، لا طيّ الصفحة أو اللّجوء إلى النسيان. وفي حال وقوع مأساة، فإنّ التجاوز يتطلّب -ضرورةً- إقامة الحداد بصرف النظر عن وجود مصالحةٍ أو عفوٍ من عدمها.

في إسبانيا لم تقع عملية الحداد بعد، وهي تعني، ضمن ما تعنيه، الاعتراف العلني بحدوث أمرٍ مّا ذي طابع مأسَوي، أمرٍ عَصيّ على الجبر. وإنّما حدث خلاف ذلك، ففي إطار الأجواء السّائدة والعادية إلى حدّ مّا، ظلّ الاحتفاء المرّة تلو الأخرى بالالتباس الذي تعرفه لحظة الحسم باعتبار أن عنصرا ما قد أصبح مادة محسوبة على التاريخ وأن عنصرا آخر لم يصِرْ بعد كذلك.

وبصفة عامة، يتم الخلط بين الحياة وغيابها هناك. إنّ الحداد ليس مجرّد ذكرى: لأنّه لا يحيل، فقط، على اللحظة التي تنبعث فيها ذكرى ميت مّا، ذكرى قد تكون مؤلمة أو متضمنة لبعض العزاء ، وإنّما يحيل على تلك اللحظة التي يتضح فيها أن غيابه قد أمسى غيابًا نهائيًّا. إنّ الحداد هو أن نجعل الفراغ ضمن ممتلكاتنا».

كارلوس بييرا Carlos Piera في تقديمه لكتاب «في أعين النهار» لطوماس سيكوفيا Tomas Segovia

الهزيمة الأولى: ••••
أو لو كان القلب يفكّر لتوقّف عن الخفقان

الآن نعرف أن القبطان *أليغريا* اختار أن يموت بشكل اعتباطي، دون أن ينظر إلى وجه المستقبل المغتاظ، الوجه الّذي يترصد مصائر تم التخطيط لها بشكل معكوس. اختار أن يموت دون عواطف متأجّجة، دون استعدادٍ كبيرٍ للتأثر، ودون أن يعلي من صوته بعد أن اجتاز ساحة المعركة، وبعد أن رفع يديه ما يكفي لكَيْلا يبدو متوسلا إزاء عدوّ مرتاب، ولكي يصرخ المرة تلو الأخرى «أنا مستسلم !».

تحت هواء معتدل وشفّاف كالعطر، كان الليل يرخي ستاره على مدريد في صمتٍ مسكونٍ بالحنين، لا يقطعه سوى الانفجار المنطفئ للقذائف وهي تسقط فوق المدينة بإيقاع طقس ديني، لا بوتيرة حربية. «أنا مستسلم». نسجّل أنّ القبطان *أليغريا* ظلّ ليلتين أو ثلاثَ ليال يدافع عن هذه اللحظة، من المحتمل أنه رفض أن يقول «أنا مستسلم»، لأن هذه الجملة ستحيل على شيء متجمّد في لحظة، والحقيقة هي أنّه شرع في الاستسلام بشكل تدريجي. في البداية استسلم، وبعد ذلك قدّم نفسه للعدوّ، ولمّا أتيحت له فرصة الحديث عمّا وقع، قدّم تعريفا لما قام به على أنه «نصر معكوس». «وعلى الرغم من أنّ الحروب لا تخلّف غير الضحايا، فقد صرنا منذ مدّة نُصارع بمفعول العادة لا غير. وصار لزاما

علينا أن نختار بين أن ننتصرَ في حرب أو نغزوَ مقبرة»، تلك خلاصة ضمّنها رسالة له كتبها إلى خطيبته *إنيس* في يناير 1938. الآن نعرف أنه، من دون أن يكون واعيا بذلك، رفض مسبقا الاختيارين معا.

والآن، إذ نعرف ما نعرف عن *كارلوس أليغريا*، نستطيع أن نؤكد أنّ ما وصل إلى سمعه، خلال انتقاله بين الخندقين، لم يكن سوى ضجيج رعبه. وأنّ كل الصخب، وجميع الانفجارات، وكل الصرخات، قد امتصها صمت الليل. وكانت مدريد في عمق الصورة مثل خشبة مسرح، تمدّ الهواء الفاتر بخيالات مدينة مطفأة، كان القمر يرسمها رغما عنه. لقد كانت مدريد بصدد البحث عن مخبأ.

هكذا بدأت هزيمة القبطان *أليغريا*. خلال ثلاث سنوات طوال، كان يراقب ذلك العدوّ المعطوب الذي تربطه به قرابة، والمضطر لقبول الأوامر بأن يباغت جيشا آخر، هو جيشه، هذه المدينة الجامدة والصامتة رُسمت حدودها بالمصادفة خلف متاريس ما كان أحد ينتظر منذ مدة أن تكون منطلقًا لأيّ هجوم.

«امتزج العنف بالألم، والغيظ بالضعف، لتكون النتيجة، مع مرور الوقت، دينًا شعاره البقاء على قيد الحياة، مع شعائر انتظارات يترنم فيها بالترتيل نفسه من يقتل ومن يموت، الضحية وجلادها، فاللغة الوحيدة المستعملة الآن هي لغة السيف وكلام الجرح». ذلك ما كتبه *أليغريا* لأستاذه في مادة القانون الطبيعي بمدينة *سلامنكا*، قبل استسلامه للعدو بشهرين.

ثلاث سنوات تفرّغ فيها لتدبير أمر التموينات بدقّة شبيهة

بوسواس كنّاس الشوارع وخشية الأب الوحيد الابن، حتى لا يتسلم أحدٌ قذيفةً من دون الإذن اللازم، وحتى يُصيب الجميع ما يلزم من الطعام ليتفرغوا لمواصلة الحرب. كانت ثلاث سنوات تفحص فيها الهزيمة بمنظارين يميلان إلى الخضرة قام مركز التموينات بتوزيعهما على قادة الحرب الاستراتيجيّين، وملاحظي المعارك، وعلى من يثير الموت فضولهم. وحتّى الفظاعات التي لم تُتح له فرصة رؤيتها كان هناك من يتكفّل بروايتها له.

من مخبئه، كان يتابع العدوّ، يراه مقبلا ومدبرا، من المكتب إلى الجبهة، ومن الجبهة إلى الورشة، من الجيش إلى الأسرة، ومن الرتابة إلى الموت. في البداية اعتقد أنه جيشٌ مُفرَغٌ من روح الجيش ولذا تعين أن يُهزم. وبمرور الوقت، وصل إلى خلاصة -خلافا لما دوّن في رسائله- تقول إنه كان جيشا مدنيا، *«وهو ما يرادف أن يعيش طائر تحت الأرض أو أن يتّسم وحش بسمات ملائكية»*. وفي النهاية، رأيتهم يحاربون كمن يساعد جارا على رعاية قريب مريض، وفكرة أنهم وُلدوا ليهزموا حوّلت أولئك الجنود إلى جثثٍ للجرد. فالهزيمة تُحسب دومًا على من يدفن أكبر عدد من الأموات.

كانت المرة الأولى التي واجه فيها القبطان *أليغريا* الخطر يوم ابتدأت هذه القصة تحديدا. ولم يكن قراره هو الالتحاق بالعدوّ، بل أن يستسلم، ويسلّم نفسه بصفته سجينًا. إن الهارب من الجيش عدوّ لم يعد كذلك، ومن استسلم فهو عدوّ مهزوم، لكنه يظل عدوًّا. لقد ألح *أليغريا* على ذلك عدة مرات عندما اتُّهم بالخيانة. ولكن ذلك حدث في ما بعد.

في بَوْح لم يتمّ تقديرُه جيّدا، بَوْح استغلّه المدّعي العسكريّ بعد ذلك بأيّام ليطالب بإعدامه بشكل مهين، أسرّ *أليغريا* لضابط صفّ أنّ المدافعين عن الجمهورية كان بإمكانهم أن يُذلّوا جيش *فرانكو إذلالا* لو أنّهم استسلموا في اليوم الأول من الحرب بدلاً من المقاومة بشراسة، لأنّ كلّ من مات في هذه الحرب، مهما كانت الجهة الّتي ينتمي إليها، قد تمّ توظيفه لتمجيد من يقوم بالقتل. دون أثر لموتى، قال، لن يكون هنالك مجدٌ، ومن غير مجد سنكون إزاء مجرّد مهزومين.

وعلى الرّغم من أنّه التحق بالجيش الثّائر في يونيو 1936، فإنّه واجه في البداية تردّد رؤسائه الّذين لم يتعرّفوا في ذلك الملازم المؤقّت على سمات محارب، فعيّنوه في آخر المطاف في إدارة الإمداد والتّموين، حيث ستكون له، بالنّظر إلى نزاهته وتكوينه، فائدةٌ أكبر ممّا لو كان في ساحة المعركة. غير أنّنا نعلم، وفق التّعليقات الّتي كان يخصّ بها زملاءه، أنّ التّعب الشّديد ومرورَ الموتى من أمامه حوّلاه، بحسب تعبيره، إلى جنديّ يؤدّي دورًا رتيبًا. ورغم ذلك، وفي أواخر سنة 1938، تمّت ترقيته إلى رتبة قبطان لمجازاته على حماسه.

أنا مستسلم.

من المحتمل أنّ عامل المطبعة المسلّح ببندقيّة، وهو الّذي أزاح أخشاب الحاجز ليتكفّل بقبطان من الجيش الثّائر، لن يعرف أبدا أنّه على هذا النّحو الباهت من الحضور ابتدأت فوضى أخرى لها ارتباط جزئيّ فقط بهذه الحرب.

لا أحد أطلق النار. فعندما وصل قرب خندق جمهوريّ، صوّب

عدّة رجال بلباس مدنيّ أسلحتهم نحوه وهدّدوه وهم خائفون. واستجابة منه إلى أحد الأوامر، قفز إلى داخل الخندق، وفي الظّلمة جرّده أحدهم من المسدس الّذي كان يحمله في حزامه. فلم يُبدِ أيّة مقاومة. كان السّلاح نظيفا لامعًا ومحشوّا، ذلك أنّه لم يستعمل من قبل. ولكن أن يتخلّى القبطان *أليغريا* عن سلاحه فذلك يعني بالنّسبة إليه مُخالَفة التّعليمات. فقد كان بصدد إعلان استسلامه، ولكن دون تقديم أدنى تنازل.

لم يكن له أيّ ملمح متوحّش أو عسكريّ، كان يبدو مثل مساعد موثّق متنكّر في زي جنديّ: وجه مدوّر ومكوّم حول نظّارتين هما أيضا مدوّرتان يتوّج جسما لولا القبّعة النّحاسية لبدا ضئيلا. وجميع الشّهادات التي استقيناها تتحدّث عن أنفة مّا على الرّغم من انصياعه لجميع الأوامر التي تلقّاها كأنّه كان ينتظرها في اللّحظة نفسها التي وجّهت إليه فيها.

كان في بداية الأمر راكعا ويداه قابضتان على رقبته، ورأسه إلى أسفل، ثم كان عليه أن يسير على تلك الحال وهو يعبر متاهة من المتاريس حيث كان هناك رجالٌ في حالة رثّة يحرسون أفقا مظلما وغيرَ مرئيّ، وفي الأخير، وصل، ويداه قابضتان على رقبته، إلى مساحة فارغة في غابة أشجار كثيفة، وهناك تأمّله طويلا، من أعلاه إلى أسفله، على ضوء قنديل غاز، قبطانٌ كان يرتدي معطف قطيفة. كلّ الأوامر أملِيَت عليه وشوشةً من طرف مَن احتجزوه، غير أنّ العسكريّ الّذي كان يقف قبالته مكتوفَ اليدين لم يجد أدنى تحفّظ في أن يسأله ببذاءة، وهو يصرخ، عمّا كان يفعله هناك.

أجاب *أليغريا* بنبرة مغايرة لنبرة السّؤال:

- لجنة الدّفاع عن مدريد ستستسلم غدا أو بعد غدٍ.

- أهذا سبب استسلامك؟ لا تستخفّ بي.

- هذا هو السّبب.

تشتّت الحديث في وشوشات وجُمل همَس بها أولئك الجنود الّذين لا يرتَدون لباسا عسكريّا، وكانت تصِله نظراتٌ محمّلة بفضول وابتسامات متفهّمة. لقد حسِبوه مجنونا.

كان بودّه أن يفسّر لماذا ترك الجيش الّذي كان سيربح الحرب، ولماذا استسلم لمجموعة من المهزومين، ولماذا لم يرغب في أن يشكّل جزءًا من النّصر. غير أنّ فظاظة هؤلاء الرّجال جعلته يتراجع مقرّرا من جديد أن يلتزم الصّمت.

كيف يمكن لحياة هؤلاء الرّجال البؤساء أن تكتسي قيمةً وتكون هي ما يتعيّن تسديدُه مقابل حرب؟ أتراهم ما كانوا يعرفون أنّ الموت يتهدّدهم؟ أتراهم كانوا يجهلون أنّ الانضباط الصّارم سيجرّ معه أولئك الّذين كانوا يقاومون؟

بعد اجتياز غابة الصّنوبر *لا ديهيسا دي لافيلا*، تمّ اقتياده راجلا حتّى شارع *فرانكوسروديغيز*، حيث أوقفوا شاحنة صغيرة كانت عائدة من توزيع المؤونة بالجبهة الشّماليّة - الشّرقية لمدريد. كانت السّاعة حوالي الثّالثة صباحا. أجلسوه على طرود لم تقَع تغطيتها، تحت حراسة رجلَين مسلّحين شرعوا في المسير. لقد أصبح أسيرا.

وفي نقطة تقاطع شارعَي *برافوموريو* و*ألفاردو*، أوقفت إحدى المجموعات الشّاحنةَ الصّغيرة. كان معهم رجل جريحٌ أركبوه وعدّلوا جلسته إلى جانب القبطان *أليغريا*. كان كتفه الأيمن ممزّقا بفعل رصاصة، ولم يُفِد العلاج المستعجل الّذي قُدّم له في إيقاف الدّم النّازف من ضمّادة. كان يشتكي بصمت كأنّه يريد ألاّ يزعج أحدا أو أنّه يرغب في المرور دون أن يثير الانتباه. وأخبرنا أن السّجين حاول مساعدته في إيقاف نزيف جرحه.

ولمّا رأى الجريحُ *أليغريا* سأل:

- وهذا؟ ما الّذي يفعله ههنا؟

أجاب أحد الجنود:

- إنّه هارب من الجيش.

صحّح *أليغريا*:

- أنا مستسلم.

اقترح الجريح بنبرة قاطعة:

- أطلق عليه رصاصة.

فقال *أليغريا مفسّرا*:

- غدا أو بعد غد سيعلن *سيخيسموندوكاسادو* استسلامه.

- هكذا. ولهذا استسلمت. كُفّ عن إزعاجي.

توقّفت الشّاحنة الصّغيرة عند الوصول إلى المستشفى الكبير الموجود بشارع *كواترو كامينوس*. وساعد جنديّان، بلباس رسميّ

هذه المرّة، الجريحَ على النّزول. ولمّا رأى أحدُهما عن قرب بذلة *أليغريا* العسكريّة سأل:

- وهذا؟

- إنّه هارب من الجيش.

صمت.

لا أحد أعاره اهتماما؛ فحركات الألم والكتف الجريح والظّلمة وضجيج الشّاحنة حالت كلّها دون تقديم توضيحات إضافيّة. وبشكل فجّ بدأوا في السّير، وقطعوا الطّريق وصولا إلى القبطانيّة العامّة. كانت مدريد مطفأة الأضواء لكنّها لم تكن خالية. ورغم أنّ السّاعة كانت قد تجاوزت الثّالثة صباحا، فإنّ أناسا عديدين كانوا على الأرصفة، وبقدر ما كانوا يقتربون من المركز، كان عدد المارّة يتزايد، وفي ساحة *بويرتا ديل صول* كانت حركة ذهاب الجنود والمدنيّين وإيابهم تجعل السّاحة شبيهة بخليّة نحل.

دخلوا عبر شارع *مايور* ولم يتوقّفوا إلاّ عند وصولهم إلى داخل القبطانيّة العامّة. هناك كان كلّ الرّجال يرتدون لباسا رسميّا ويؤدّون التّحية لرؤسائهم، وكان بالإمكان معرفة رتبة كلّ واحد منهم بالاستناد إلى النّياشين والنّجمات المعلّقة. وكان وجود القبطان *أليغريا* من جديد بين عسكريّين محترفين قد جعله يشعر بارتياح، لأنّه كان يعرف كيف يتصرّف، فقد كان يفهم مغزى حركاتهم ورموزهم. ثمّ إنّ الجيش -بغضّ النّظر عن مسألة الولاء- يمثّل بالنّسبة إليه ما تمثّله الخريطة للمسافر: كان كلّ فرد يحتلّ المكانَ المخصّص له وكانت كلّ المسافات محدّدة.

تلك السّاحة بدَت له، على الأرجح، مثلَ فضاء له حرمة انتُهكت في حركة محمومة وهرج لا يليق بالمكان. تقدّم أحد حرّاسه من قائد عسكريّ وتحدّثا عن الأسير دون أن يتمكّن *أليغريا* من التقاط ما قيل. لم يكن أحد يحرسه، ولا أحد تنبّه إلى لباسه العسكريّ المختلف رغم أنّه كان هنالك ما يكفي من الضّوء لينير كلّ هذه الحركة. ولم يكن مقيّدا، أو تحت المراقبة، ولم يكن مرهوب الجانب، ولا مكروها. ولم يجانب الحقّ، فـ*كاسادو* كان سيستسلم. وفي شاحنة صغيرة أخرى، أنظف بعض الشّيء من شاحنته، كانوا يضعون، على غير نظام ولا ترتيب، عددا كبيرا من الملفّات والأغلفة والأرشيفات والوثائق دون أن تُصنّف، وكان الجنود يرصّونها بعنف لاستغلال سَعَة السّيارة على أحسن وجه. في حين استعملت وثائق أخرى لتغذية نارٍ كانت تُصدر فرقعات وسطَ السّاحة وهي تتلقّى أوراقا كان مدنيّون يقومون بانتقائها.

ظلّ فترةً غير قصيرة في وضعِ استرخاء يتأمّل تلك الحركة المحمومة لجنود وضبّاط كانوا يتجاهلون وجوده إلى أن أمره جنديّان مسلّحان بأن يرافقهما.

نزلوا إلى سرداب تنبعث منه رائحة عفنة، وتمّ حبسه بزنزانة واسعة كان بها سجينٌ. وبعد أن تعوّد على الظّلام، انتبه إلى أنّ الأمر يتعلّق بعسكريّ جمهوريّ برتبة عريف أوّل. كان رجلا هزيلا وقُورا، لاحظ *ألغيريا* أنّه كان رثّ الثّياب. وبما أنّه اغتاظ من رتبته العالية نظر إليه بوقاحة برّرها الانفلات من شروط الانضباط العسكريّ

لواجبات التّراتب واكتفى بأن قال: «*صباح الخير*» بالشّكل الأقلّ التزامًا بالتّقاليد العسكريّة.

كان الفجر قد بدأ يطلع.

ما الّذي يمثّله مهزوم بالنّسبة إلى مهزوم آخر؟

إنّنا نعرف، بفضل الشّهادة المتوفّرة لدينا، أنّ مرافقه في الزّنزانة اكتفى بأن طلب منه بشكل جافّ بعضَ التّبغ المفروم ليلفّ سيجارة، وأنّه أظهر لامبالاةً فظّة حين علم أنّ الوافد الجديد لم يكن يدخّن.

قبع القبطان *أليغريا* في الزنّزانة في أبعد نقطة ممكنة عن مرافقه، وترك نفسه يتهاوى في مكان قاتم في ذلك السّرداب الّذي لا يصله ضوءٌ كان بالإمكان استشعار وجوده من ثقب التّسديد. ولنفترض أنّ ترتيب الوقائع كان له ارتباط مّا بتوقّعات المستسلم، فإنّ شيئا مّا دنيئا كان يُنقص من قيمتها الحقيقيّة، شيء مّا كان يشوّه الأحداث ويجعل من استسلامه أحقر ما يمكن القيام به بعد أن كان قد تصوّره مملوءا بالتّدقيقات والتّلوينات الفكريّة .

أن نقدّم افتراضاتٍ بخصوص ما تفكّر فيه الشّخصيّة المحوريّة لقصّتنا يعني اجتهادا لتفسير الأحداث التي تأكّدنا من وقوعها. ذلك أنّنا نعلم أنّ *أليغريا* درس القانون بمدريد أوّلا وبسلمنكا بعد ذلك، ونعلم، انطلاقا من أقوال بعض أقاربه، أنّه تلقّى التّربية الّتي يتلقّاها الملاّكون القرويّون عادة بـ *ويرمسيس* في إقليم *بورغوص* حيث ولد سنة 1912 في حضن أسرة ذات أصول نبيلة، وترعرع في بيت كبير بقوسَين من حجر وشعار كان يميّز أهلَه من حديثي النّعمة الّذين

أثرَوا على حساب مجاعات الجنوب لمّا هزم داء الجمرة وآفة الكرم وسوس القمح وأشكال أخرى من سوء الطّالع القطيعَ والكرم والمحصول وأشجار الزيتون.

لم يكن *أليغريا* طالبًا لامعا وإن تميّز بمثابرته، وقد علّمه خيمينيص دي *أسوا* أنّ القانون لا علاقة له بالنّظام الطّبيعيّ، وأنّ على المشرّع أن يكون منحازا لأنّ تلك هي الطّريقة الوحيدة لتحقيق المساواة. أمّا صاحب السّلطة فتكفيه سلطتُه.

غير أنّه –في ما بعد، أي أثناء وجوده في سلمنكا – تعلّم أنّ القانون فوق القوانين، وأنّ هذا القانون لا يختار شيئا. بل حدّثوه كذلك عن قانون مقدّس بشكل مضاعف. ومنذ أن بدأت تظهر عليه أُولى علامات الرّجولة ربطَته علاقةٌ جدّيّة رصينة بـ *إينيس هويويلوس*، الابنة الوحيدة لمالكي بقالة ميسورين. وقد ساهمت بسخاء في إعادة بناء هذه القصّة.

وصل إلى علمنا أنّ *أليغريا* التحق بالجيش الثّائر سنة 1936 لأنّه كان يدافع بذلك عمّا كان دوما في ملكيّته. كان الأمر، بالنّسبة إليه، يتعلّق بحرب دون معارك ودون بطولات وأعداء، وإنّما كان الرّهان تأمين الكميّات الكبيرة من القمح والتّبغ والألبسة وعدّ *حمائل* الخناجر ومراقبة حالة الأحزمة وتوزيع القذائف والأغطية والأحذية والثّياب الدّاخليّة على الجنود. كانت الحرب تعني، بالنّسبة إليه، أن يجمع ويوزعّ وينظّم ويقسم ويدبّر كلّ ما يحتاجه الآخرون ليقتلوا ويموتوا وينتصروا على عدوّ لم يرَه قطّ عن قرب، وإن كان دوما موجودا هناك كمنظر طبيعيّ لا يفتأ يزداد جمودا وتصلّبا.

ويفيدنا تقرير إدارة الإمداد والتّموين تقرير إدارة الإمداد والتّموين، الّذي تعيّن عليه صياغته في اللّيلة نفسها الّتي استسلم فيها للعدوّ، فكرةً أساسيّة عن الحال النّفسيّة الّتي وجد فيها -بعد ثلاث سنوات من خوضه الحربَ *«بعد إحصاء ما هو موجود تبيّن أنّ كلّ شيء يوافق -بشكل دقيق- اللّوائح المرفقة-، كلّ شيء باستثناء الضّابط الموقّع على هذه الوثيقة، الضّابط الّذي يعتبر نفسه دائرة مربّعة وروحا معدنيّة، وهو، وإن كان يمقت عدوّنا، لا يريد أن يشعر بأنّه مسؤول عن هزيمته.*

التّوقيع كارلوس أليغريا، القبطان المسؤول عن إدارة الإمداد والتّموين...».

مرّت أكثر من ساعة قبل أن يقطع ضجيجُ محرّكاتٍ الصّمتَ الّذي كان سائدا.

سأل العريف أوّل:

- لقد استسلموا. أليس كذلك؟

في الخارج كان هناك سكون ثقيل يلفّ أصداء حركة محمومة لكنّها صامتة وحزينة. كانوا يغادرون مقرّ القبطانيّة العامّة. ولم يكن أحد يعطي أوامر، فالكلّ كان يعرف ما يتعيّن القيام به: الفرار في أسرع وقت ممكن. وبدأ الهرج الصّامت يتلاشى كما تلاشى مشروعه. وفي السّاعة العاشرة صباحا تمكّن من أن يتحقّق من ذلك في ساعة اليد الّتي ورثها عن جدّه.

كان كلّ شيء قد ذاب في هدوء البقايا وحالات النّسيان. وعرف

أنّهما كانا وحيدَين. كان هو والرّجل الهزيل المقيمَين الوحيدَين بمقرّ القبطانيّة العامّة.

وكان *فرانكو* يحكم سيطرته على مدريد. وبعد ساعة أو ساعتين وصل القاطنون الجدد إلى مقرّ القبطانيّة العامّة وتوزّعوا بنظام وصخب ليشغلوا كلّ مكتب وكلّ ممرّ. لقد صار مركز القرار في ملكيّتهم.

كانت تلك الخطوات ذات طابع عسكريّ، يرافقها إيقاع سلطة وطاعة، وخضوع وتراتبيّة. تعرّف القبطان *أليغريا* في حركة الذّهاب والإياب تلك على شيء مألوف لديه، هو صوت الذّات. غير أنّ هذا الشّعور لم يمنحه أيَّ عزاء. بل شعر، على عكس ذلك، كأنّه عاد إلى عالم ما كان يرغب في الانتماء إليه، عالمٍ هرب منه: شعر كأنّه يبدأ من جديد.

ارتجاجات أبواب، أقفال، ومطارق، وأشياء أخرى مستعجلة أخرجت القبطان *أليغريا* من حصن ذاكرته. انفتح باب ذلك السّرداب وفوجئ ضابط كان مصحوبا بثلاثة جنود يحرسونه إذ تبيّن له أنّ هناك من لم يغادر تلك البناية المهجورة.

- وأنتما؟ ما الّذي تفعلانه ههنا؟

هذا السّؤال نفترضه، لأنّ شاهدنا، العريف أوّل الهزيل، تجنّب في حَكْيه ذكرَ أمارات الخنوع (قال لنا: *«فيما يتعلّق بي، بعد كلّ ما رأيته في هذه الحرب، لم أعد لا مع هؤلاء ولا مع أولئك»*)، ولكنّه تذكّر إصرار شخصيّتنا على وضعه بصفته مستسلما.

- لمن استسلمت أيّها القبطان؟

- للجيش الجمهوريّ، سيّدي العقيد.

- متى؟

- هذا الصّباح، سيّدي العقيد.

التفت العقيد نحو حرّاسه ليتأكّد من أنّ ما سمعه كان صحيحا. لم يقم الحرّاس بأدنى حركة. لأنّ أصحاب القرار هم من يُفترض فيهم أن يتكفّلوا بتأويل الأوضاع الغريبة في تقاليد التراتبيّة العسكريّة وأعرافها.

طلب منه بطاقته العسكرية وتمعّن فيها بارتياب وهو يبحث عن تفسير على الرّغم من أنّ كلّ ما سجّل فيها هو اسمه ورتبته ومساره القصير في الجيش. واحتفظ بها في جيب قميصه، وبنبرة استغراب وتوعّد سأل:

- أحقّا استسلمت هذا الصّباح؟

- نعم، سيّدي العقيد، استسلمت هذا الصّباح.

- أنت غبيّ وخائن. ومن أجل هذا ستحاكم.

وعادوا إلى إغلاق الباب تاركين السّجينَين حيث كانا. لم يتجرّأ العريف أوّل على أن يرفع عينيه عن الأرض. فأن يكون سجينا قد يكون، وهذا ما حصل بالفعل، خشبةَ خلاصه.

سجّلت حالات صمت موزّعة على زمن بطيء لكنّه مختصر، فقد بدأ سجناء يتوافدون على ذلك القبو بالوتيرة الّتي يتدفّق بها الماء من العيون.

كان القبطان *أليغريا* يتفحّص ذلك الحشد من المهزومين الّذين

كانوا يُنقلون إلى سرداب مقرّ القبطانيّة العامّة إلى أن تعرّف إلى أحد السّجناء: إنّه الشّخص نفسه الّذي رافقه ذلك الصّباح من *دي هيسا دي لافيلا* إلى المستشفى العموميّ *كواترو كامينوس*. كانت كتفه معصوبة يتدلّى منها ذراع لا حراك فيها وحركة ألم يائس جعلتاه مألوفا في حظيرة الظّلال. تعمّد *أليغريا* أن يقترب منه وسأله إن كان يشعر بالألم. ومن المحتمل أنّه شعر، بعد طرح السّؤال مباشرة، بخجل مراهق: لا شكّ أنّ كتفا ممزّقة وهزيمةً يكونان مصدر الألم دومًا.

- هل بإمكاني مساعدتك؟

- تبّا. المستسلم!

تلك الجملة التّلقائية المعترفة بوضعيّته الحقيقيّة أورثت في نفسه حتمًا بعضَ الرّضا؛ ذلك أنّه، وفق ما حكى لنا الجريح الّذي ظلّ على قيد الحياة وخضع لعمليّة قطع الذّراع في اليوم الّذي كانوا سينفّذون فيه حكما بالإعدام عليه، اكتفى بقول «شكرا» ثمّ التفت إلى الخلف باحثا عن الخواء. وأخيرا تحقّق ما قرّر أن يكون، لقد أصبح عدوّ نفسه.

أغار فوج من السّجناء على ذلك السّرداب فتلاحقت دهشات جديدة وحالات خوف مختلفة واستكانات متباينة. وبعد ثلاثة أيّام، أصبح الهواء لا يطاق، وبدأت عمليّة نقل السّجناء. وأمّا عن المراحل الّتي قطعها *أليغريا* من ذلك السّرداب ليصل إلى كتيبة الإعدام، فليس في حوزتنا سوى بعض معطيات غير دقيقة.

كانت وثائق حرّاس المتاهة والرّسائل القليلة الّتي كتبها هي الوقائع الوحيدة الموثوق بها، وما تبقّى كان هو الحقيقة. كان بإمكانه

البَوح بكلّ شيء بما أنّ الفرصة قد أتيحت له ليقوم بذلك. لكنّه فضّل أن يلتزم الصّمت لأنّه كان يصفّي حسابا مع مرابيي الحرب.

نعلم أنّه قد نُقل إلى أحد مستودعات مطار *باراخاس* حيث كان الجيش المنتصر وهيئة عدالته يقومان بتجميع الجنود ذوي الرّتب لإخضاعهم لمحاكمات سريعة انتهت، بلا استثناء، بأحكام الإعدام.

خلال فترة اعتقاله بمطار *باراخاس* اضطُرّ الجنود المخلصون للجمهورية إلى تجاهله بل إلى تجنبه بما أنّه في رسالة أخرى كتبها إلى خطيبته *إينيس* -وصلت متأخّرة ثلاثة أشهر لأسباب غير معروفة- يصف بشكل غامض وضعيّته ويشبّهها بـ «مادّة لايبنز الأوّلية». حدث كلّ شيء بسرعة فائقة وتهاوى بشكل غير منتظر، مما جعل حياة القبطان *أليغريا* تتلاشى في أحاسيس غسقيّة، وفي حالات عزلة لا ترحم، وخوف وقِح. فلم يتجرّأ على الصّلاة حتّى لا يثير انتباه الإله وغيظَه.

ظلّ في مستودع *باراخاس* الكئيب من الرّابع من أبريل إلى الثّامن منه، وازداد ضعفه، وذبل مثل قِربة جافّة، وتبدّدت على التّدريج رباطة جأشه لشعوره إمّا بغثيان أو دوار أو إغماءة أو ارتعاشة أو هجمة جوع. اطّلعت فرقة من الكتائب على طبيعة انتماء كلّ واحد من السّجناء الّذين تلقّوا -وهم في وضعيّة وقوف عسكريّ- ألوانا من الشّتائم والضّربات والإهانات قبل أن تُنزع شارات رتبهم العسكريّة من لباسهم ووثائقهم وكل حوائجهم الشّخصية. أمّا العقيد *لوصون* الّذي لا مبرّر لإدانته بالانتماء فقد رفض التّخلّي عن نجمات رتبته

بما أنّه حصل عليها بشكل مستحقّ في ساحة المعركة، فمَحت طلقة مسدّس، في طَرفة عين، المرتبة والنّجماتِ والحياة. وبرّروا اغتياله بمحاولة الفرار، وهذا ما تمّ تسجيله ببساطة في شهادة وفاته.

غير أنّه في يوم الثّامن من أبريل، جاءت اللّحظة الّتي طالما انتظرها القبطان *أليغريا*. ففي منتصف الصّباح، عندما كان ضوء النّهار يحوّل ذلك المستودع إلى قفص لتوسّلات حنين تُتلى بصوت منخفض، وحالات صمت مستحيل يعانيها مئات الرّجال المتلاصقين، نُودي بالأسماء الأولى.

هذه هي الوثيقة الأكثر واقعيّة بخصوص ما حدث بالفعل، الحقيقة الوحيدة الّتي تؤكد قصتنا ومن المحتمل أن تتضمّن كثيرا من نقاط التّشابه مع ما نحن بصدد حَكْيه. ولولا خشيتنا من أن يتمّ تأويل كلامنا بشكل سيّء لكنّا اكتفينا بنقل محضر المحاكمة الّذي تمّ بمقتضاه الحكمُ على *أليغريا* بالإعدام رميًا بالرّصاص لأنّه خائن ومجرم أساء إلى وطنه.

لقد تغاضينا -قصدا- عن الإشارة إلى الجزء الأوّل من محضر المحاكمة المستعجلة المستندة إلى القانون العسكريّ المطبّق في حال الحرب، وفيه سجّل انتماء القبطان *أليغريا*، ونزع رتبته، وطرده من الجيش ووصفه بكونه عسكريًا خائنا في زمن الحرب.

وبعد عدّة اعتبارات لا يتمّ الحديث فيها عن مساره العسكريّ وقع الاقتصار على بعض السّلوكات الدّالّة الّتي استُقيت من معلومات جُمعت من رؤسائه المباشرين، يسّجل المحضر ما يلي:

«لمّا سئل عن التّاريخ الّذي قرّر فيه العبور نحو خطوط العدوّ، مرتكبا بذلك خيانته للجيش الوطنيّ المجيد، أجاب بأنّه قام بذلك في فاتح أبريل من سنة النّصر الحاليّة».

«وعن سؤالٍ حول الأسباب الّتي دفعته إلى أن يقرّر خيانة وطنه أجاب بأنّه فعل ذلك لأنّ الملازمين الأوّلين العقيدين طيا وبارون سيطرا في نوفمبر من سنة 1937 على منطقة فيلافيردي ومنطقتي كارابانشيليس بمدريد. وأضاف أنّه فعل ذلك لأنّ قوات أصينسيو وكاصطيخون سيطرت على «لا كاسا ديلكامبو» بمدريد المحميّة من طرف الفرقة الأولى والفرقة الحادية عشرة من القوّات الأمميّة الّتي اكتفت بالتّراجع حتّى ضفاف نهر مانزاناريص».

«وعن سؤال حول ما إذا كان كارلوس أليغريا المُقال من وظيفته يرى في عمليّات التّقدّم الموصوفة سببا كافيا لخيانة الجيش الوطني المجيد أجاب قائلا: إنّه فعل ذلك لأنّ الجنرال فاريلا أمر أصينسيو بأن يعبر بدبّاباته نهر مانزاناريص وهو ما حدث يوم 15 نوفمبر من سنة 1937، حيث سيطر بارون على المستشفى العسكريّ لكارابانشيلباخو».

«ولقد فعل ذلك لأنّ حكومة الجبهة الشعبيّة غادرت مدريد في اليوم نفسه معتبرة أنّها سقطت في يد العدوّ، وكلّفت الجنرال مياخا بالدّفاع عنها ولم يكن يوجد تحت إمرته غير جيش مكوّن أساسا من القوات الدّوليّة الّتي أرسلها الجنرال كليبير عديم التّجربة».

«وقد فعل ذلك لأنّ أسينسيوكابانيليس أحكم قبضته في

اليوم نفسه، أي 15 نوفمبر على الحيّ الجامعيّ بمدريد وهو يرأس زمرة من جنود نظاميّين منحدرين من تطوان وصلوا حتّى حديقة لا مونكلوا ليشرف الجنرال أسينسيو كابانيليس بنفسه على مستشفى مدريد للعلاج وكان في طور البناء».

«وتلقّى المصرّح أمرا بأن يصمت ففعل».

«وعن سؤال حول ملابسات اطّلاعه على الوقائع المذكورة، أجاب الخاضع للمحاكمة بأنّ مردّ ذلك إلى أنّه كان مسؤولا عن تدبير إدارة الإمداد والتّموين للجبهة الجنوبية والجنوبيّة-الشّرقيّة، تحت أوامر الجنرال فاريلا المباشرة. ولهذا فهو يعلم أنّ العقيد ريوسكاباي ومحمّد مزيان وصلا في نوفمبر سنة 1937 إلى حدود الجهة العليا من شارع فيراص، بوسط مدريد، وهناك لقيا مواجهة من مقاومين كانوا بصدد التّراجع». «وتلقّى المصرّح أمرا بأن يصمت فيفعل».

«ثم عن سؤال حول ما إذا كانت البطولات المجيدة للجيش الوطني هي الدّافع إلى خيانة الوطن، أجاب بالنّفي، وأنّ السّبب الحقيقيّ هو أننا لم نكن حينذاك راغبين في أن نربح الحرب ضدّ الجبهة الشّعبيّة».

«وعن سؤال: ما الّذي كنّا نريده إذا لم نكن بالفعل نريد ربح الحرب الصليبيّة المجيدة، أجاب الخاضع للمحاكمة: «كنّا نريد قتلهم».

وبعد ذلك، طرد من الجيش وثبت اتّهامه بجريمة الخيانة والتّواطؤ مع العدو، وحكم عليه بالإعدام.

وشُفع الحكم بتوقيع وطابع غير مقروءَين.

تحدّث القبطان *أليغريا*، أخيرا عن موضوع تلقّي رؤسائه المباشرين رشواتٍ.

وانطلاقا من هذه الوثيقة، تمتزج الوقائع الّتي نرويها بخليط من الأخبار المتضاربة المشكَّلة من أحداث موثوق بها أحيانا أو ثمرة ذكريات غير واضحة رواها شهودٌ فضلوا النّسيان. ووثقنا مع ذلك بذكريات غائمة تخصّ جُملا همس بها خلال حالات نوم قلق احتلّت مكانا من الحقيقة، على الرّغم من أنّها ليست مؤكّدة بشكل قطعيّ.

اضطرّ القبطان *أليغريا*، وقد أصبح مدنيّا وخائنا بل وميّتا إلى العودة إلى المستودع حيث حكم على العديدين وحيث كان آخرون في انتظار الأحكام. فكتب ثلاث رسائل على الأقلّ: واحدة لخطيبته *إينيس*، وقد حصلنا عليها، وأخرى لوالدَيه اللّذين تهدّم منزلهما بـ هويرميسيص بفعل فيضان نهر *أوربيل* جارفا مع مياهه ذاكرةً وممتلكاتٍ ورغبةَ عيش لدى عجوزين ثبّتا نظرتَيهما، لمّا علما بفقدان ابنهما، في نقطة لا معنى لها من المنظر الطبيعيّ ولزما الصّمت حتى إنّهما قبل أن يُسلما الرّوح لم يرغبا في الاعتراف أمام أيّ راهب.

أما الرّسالة الثّالثة فوجّهها إلى الجنرال الأعظم فرانكو قائد جيش إسبانيا. وقد علمنا بأمر هذه الرّسالة الأخيرة لأنّه أشار إليها في الرّسالة الّتي وجّهها إلى *إينيس*: «كتبتها لا لأستعطف أو أطلب العفو، ولا لأُظهر ندمي، ولكن لأقول له إنّ ما رأيته قد عاشه آخرون، ولذلك فمن المستحيل أن يظلّ منسيّا بين أزهار السّوسن».

وفي رسالة أخرى إلى *إينيس* الّتي كانت تشتغل معلّمة بـ*أوبييرنا*،

تحدّث بشكل خفيّ عن العزلة الّتي تجعل منه بقايا إنسان. ومثلما فعل من قبل مع القدّيس *خوان دي لا كروث*، كان عليه أن يلجأ إلى جُمل صاغها آخرون ليتحدّث عن نفسه، كأنّه لا يجرؤ على التّعامل بعواطفه: *«أنا كائن كان، وكائن سيكون، وكائن متعب الآن»*. لا تأثّر هناك في لحظة وداعه، ولا حبّ، بل عويل منتشر وطعن ضدّ من عاصره، وأسى على حياة ضائعة. «لم يكن لديّ وقت لأضع خططا لحياتي لأنّ فظاعات أخرى جعلت مستقبلي معلّقا. ولكن تأكّدي أنّني لو كنت قد وضعت تلك الخطط لكنت أنت العمود الفقريّ الّذي يمنح التّوازن لمشروعي».

وإذا كان علينا أن نتخيّل ما أصبحت عليه الحياة بالنّسبة إلى القبطان *أليغريا*، وجب أن نتحدّث عن زوبعة من زيت: بطيئة، ولزجة ولا يمكن تجنّبها. كان يحمل وحدته من مكان إلى آخر في مستودع الآلام ذاك، يلفّه الفراغ، وينقل معه المسافة بينه وبين الكون، يترقّب اللّحظة السّابقة عن النّهاية وهو لا يعرف أن النّهاية لم تكتب بعد.

تسعة أيّام وهو ينتظر دوره. وفي كلّ صباح كانت مجموعة من السّجناء تجبر على الانتظام مَثنى مَثنى بالمستودع وتُنتقى اعتمادا على المصادفة وعلى شكل قافلة لتساق إلى شاحنات كانت تختفي في منظر طبيعيّ فاتر ومقفر. وقليل هم أولئك الّذين كانوا يلقون تحيّة الوداع. كان أغلبهم يذهبون في صمت. ومن المحتمل أنّ الموت سيبدو لـ *ألغيريا* شيئا مألوفا نظرا إلى تعوّده على تأمّل عدوّه دون تأثّر، غير أنّ الحياة، وقد ارتهنت إلى الوجود أو عدمه عند الزّاوية المختارة لانتقاء الموتى، لا بدّ أنّها قد أصبحت بالنّسبة إليه غير محتملة.

كان *أليغريا* يرفض الصّدفة ويحتاج إلى النّظام. ونحن نستطيع أن نفترض أنّه شعر ببعض الارتياح حينما كان -وهو منهك القوى- أحدَ الّذين شكّلوا القافلة يوم 18 تحت مطر غزير، يوم كان فيه كلّ المحكومين مكدّسين في الشّاحنة ومنشغلين بحفظ التّوازن ملتصقين، متشابكي الأيدي ويتبادلون النّظرات. وفي منتصف الطّريق، بحثت يد مّا عن يده وتبخّرت وحدته حينما ضمّته يدٌ بصمت وشّدة وهو ما منحه موضعا في طائفة المهزومين. تلت ضمّةَ اليد نظرةٌ، ثم نظرات أخرى وعيون محمرّة بفعل الضّعف والبكاء المخنوق. *«سامحوني»*، قالها ثم غاص في تلك الجلبة، جلبة الأجساد الحزينة. كانت السّاعة تشير إلى الثّامنة صباحا حين وصلوا إلى *أركاندا ديل راي*. وكان كلّ شيء مهيّأ: حاجز من حجر، بقايا اسطبل مهدّم، ساحة واسعة، كتيبة للإعدام، وصفّ من الحرّاس الّذين أحضروا كلّ ما يلزم من أجل التّنفيذ... شاحنات أخرى، محكومون آخرون، حالات يأس جديدة التحقت بالحفل. وكان هناك قسّ بشالٍ بنفسجي يرتّل باللاتّينية دعوات لاستجداء الرّحمة. لقد كان عددهم يقارب المائة، وكان عليهم أن يتزاحموا حتّى لا يتجاوزا مقاس الجدار. لحظات من الصّمت حتّى يُنهي القسّ ابتهاله بإشارة مباركة رسمها في الهواء بفتور وداع حزين. وبعد ذلك مباشرة سمع صوت آمر: *«كتيبة»*، ساد الصّمت ثانية، وأمر الصّوت: *«صوّبوا»*، وبعد أن خيّم الصّمت من جديد سمع الأمر التّالي: *«أطلقوا النار»*.

وإذا كان أحدهم قد صرخ، فإنّه لا أحد تمكّن من سماعه. وحين استعاد القبطان *أليغريا* وعيه كان مدفونا في قبر جماعيّ مختلطا بسديم

من الأموات والتّراب. لزمه بعض الوقت لفهم ما جرى، لكنّه عندما شعر بالألم عرف أنّه انتهك مجدّدا قوانين عالم كانت العودة إليه ممنوعة. كان على قيد الحياة. ومزيج من نخاع وغضاريف جامدة، ودم مخثّر وبراز، وأنفاس محبوسة، وقلوب فاجأها الموت فاحتفظت بأكياس هواء في ارتباك الموتى، هذا ما مكّنه من أن يتنفّس على الرّغم من أنّه كان مدفونا. كان على قيد الحياة. هنالك ظلمة للأحياء وأخرى للموتى. وأليغريا قدخلط بينهما لأنّه لم يحاول فتح عينيه، لكنّه لمّا سمع بكاءه عرف أنّ ذلك لم يكن صمت الموتى. لقد كان على قيد الحياة.

تحدّث *أليغريا* دومًا عن هذه اللّحظة باعتبارها ولادة. احتاج، وهو خائر القوى، إلى بعض الوقت ليتبيّن حدود جسده المرتخي المضغوط بجثث مدفونة بعضها مع بعض. كان التهاب بالرّأس يؤلمه إلى درجة جعلته يظنّ أن جمجمته قد انقسمت إلى نصفين. وببطء، وحتّى لا يزعج راحة أولئك الموتى، بدأ يقرّب ذراعيه من جسده متوقّفا بعد كلّ مجهود يبذله حتّى لا يلهث، فقد كان يخشى أن يستنفد الهواء المتوفّر. كان يستجمع ما يستطيع من القوّة ليتخلّص من الثّقل الّذي يشلّ حركته. لقد رأى الحفرة الّتي كان مدفونا فيها قبل أن يُعدم، وما كان عمقها ليسمح بوجود جثث كثيرة فوقه. حاول عدّة مرات، وفي كلّ محاولة تبيّن له أنّ شيئا مّا كان يتحرّك فيخفّ ضغطه إلى أن تمكّن من التّحكم في الوضع ووجد نفسه تحت السّماء مباشرة. ملأ التّراب المكان الّذي كانت تشغله جثّته وزحف إلى أن وصل إلى مرتفع ثمّ ترك نفسه يسقط إلى أسفل محاولا إيقاف بكائه. كان كاملا لا تنقصه إلا النّظّارات.

وكانت رصاصة قد أصابت الجهة العليا من جبهته، ولحسن حظّه مرّت بمحاذاة جمجمته مخلّفة جرحا غائرا يكاد يصل إلى العنق دون أن يكسر الوجه. والتصق دمٌ بوجهه وبصدغَيه وعنقه، غير أنّ التّراب خفّف من خطورة الجرح، ورغم أنّه ينزف الآن من جديد، فإنّه لمّا كان مغشيّا عليه كان لقلبه سبب آخر لينبض عدا الخوف.

كان اللّيل قد بدأ يسدل ستائره.

سوف تعرف حياة *أليغريا* ههنا جملة من التّقلّبات الّتي نملك عنها تفاصيل قليلة، فهو إذا كان أحيانا يقبل التّطرّق إلى ما حدث قبل واقعة بعثه، فنادرا ما قبِل أن يحدّث أيّا كان عن كيفيّة قطعه المسافة الفاصلة بين *أركاندا ديل راي* و*لاأصابيدا* القرية الجبليّة الموجودة بالجهة الشّماليّة من جبل *صوموسييرا*. كانت غرانيتا ونبات نشابة وجبالا تحيط بهذه القرية المبنيّة بالآجر والحجر، تظلّ تحت الثّلج في سبات طَوال فصل الشّتاء وتنشغل بعمليّات حرث حين يصل فصل الرّبيع بأجوائه المعتدلة.

ذات مرّة، أخبر أحد سجّانيه أن الجميع، باستثناء الحيوانات، كانوا يهربون منه ويفرّون عندما يعرفون أنّ ذلك الرّجل المتّسخ الهزيل الّذي يشعّ الألم من نظرته كان على قيد الحياة. وحدهم الموتى لم يكونوا في تلك الأيّام مصدر خوف.

لقد عثروا عليه في حقول *لاأصابيدا* منهكا يحتضر، وقد حسبه بعض القرويّين في البدء ميتا، لكنّهم عندما قرّروا نزع الحذاء عن رجليه، سمعوا تلك الرّأس المضرجّة بالدّماء تطلب ماء. كان يرتدي

اللّباس الرّسميّ للجيش الّذي كان قد انتصر لتوّه في الحرب في حين كان يرتجف باختناقات المهزوم.

الآن نعلم أنّه كانت هنالك مجموعة من الاختيارات الّتي تراوحت بين دفنه حيّا -بعد أن عرفت الجهة الّتي أطلقت عليه النّار- أو تركه يموت بين نبات النشابة، أو إخبار السّلطات بأمر العثور عليه. غير أنّ عجوزا حازمة قرّرت أن تعطيه ما كان يطلبه وأن تمسح وجهه بتنورتها.

قالت: *«كلّنا أبناء الرّبّ، بما في ذلك هؤلاء»*. وهكذا بدأت سلسلة من الإسعافات للجريح امتدّت طوال ثلاثة أيّام ليظلّ ذلك الميت على قيد الحياة. كان كلّ شيء يشارك في المؤامرة حتّى يتعذّر عليه أن يستقيل من الحياة بالطّريقة نفسها الّتي يمكن أن يتخلّص بها النّائم من حلم يقظة.

أبقوه هناك بين نبات النشابة، بسبب الخوف من جهة أولى، وتجنبا لخطر موته أثناء عمليّة النّقل من جهة ثانية. عالجوا الجرح بموادّ لا فائدة منها، ولفّوه بغطاء وأعطوه ماء وبعض غذاء. اليوم نعلم أنّ ذلك كان، في تلك الظّروف، فيضا من الرّحمة، قدّره *ألغيريا* حقّ قدره بأن تجنّب ذكر أسمائهم.

وأمّا أن يقترب أحد من رجل عفن لزج بسبب البراز والدّم، فيرفع رأسه، ويضع ماء في شفتيه بوداعة، ويطعمه بملعقة حساء يمكن للموتى هضمه، ويقول له جملة مواساة، فذلك كان علامة على أنّ شيئا إنسانيّا ظلّ حيّا على الرّغم من الخراب الّذي سبّبته الحرب.

ولولا شفتاه المتشقّقتَين، لكان *أليغريا* قد ابتسم. هكذا حكى عن ذلك، وهكذا ننقله بدورنا.

وكذا حدّث الممرّضين الّذين كانوا يتعهّدونه في السّجون الّتي حلّ بها لاحقا، بأنّه لمّا كان هنالك ممدّدا، متجاهلا نداء الأرض الّتي كانت تطالب بها في ملكيّتها، لم يكن الخوف من الموت هو مصدر عذابه، بل الخجل من أن يروه في تلك الحال من التّحلّل، والخجل من أن يشمّوا نفَسه المثير للغثيان، أو أن يتّسخ من يمدّ له يد العون حين يلمس التّقيّح الّذي تفرزه جروحه. كان يلفّ نفسه بالغطاء عندما كانوا يحضرون له الغذاء ولم يكن يسمح لأيّ كان بأن يقترب. الآن نظنّ أنّ ذلك كان على الخصوص طريقة لتجنّب الإدلاء بتفسيرات.

كان صباح اليوم الرّابع دون سحب، وكان الغطاء مضمّخا بالنّدى، ولم تشفق الحمّى على شيء حتّى عظامه. فأمسى يتمنّى الموت بـ *هويرميصيص*، لكنّ الحياة باقية بالنّسبة إليه على شكل مزق في تلك المناطق البعيدة غير المضيافة... استجمع كلّ قواه ووظّف حتّى ارتعاشاته ليتحرّك، وبعد أن ثنى الغطاء ليعلن عن امتنانه، وضع الماء والبطاطس المسلوقة في الإناء الّذي كانوا يحضرون له فيه الغذاء، ثم بدأ مسيره نحو قريته الواقعة وراء الجبال الّتي كانت تخفي وحشيّتها بين السّحاب. ثمّ بدأ في السّير باتّجاه قمّة الجبل قاصدا *صوموسييرا*.

هناك، تبرز تلك الجبال لتقسم إسبانيا إلى قسمين، والآن يحلو لنا أن نعتبر أن المجهود الشّديد المطلوب لاجتيازها كان شكلا آخر لتجاهل وجود هذه الجبال الفاصلة، وكان مرادفا للرّغبة في الوجود بالجهتين.

بحث عن السّبيل الّتي تاه عنها بفعل تأثير الحمّى، وارتقى تلك العقبة المحاذية للطّريق حتّى لا يراه من كانوا ينتقلون من جهة إلى أخرى. كان الأمر يتعلّق دوما بفِرق من الجيش تنقل مؤونة أو جنودا أو سلاحا وكلّ ما يمكن احتياجه لمواصلة السّيطرة على الأرض الّتي غزوها. حركات خاملة لحرب، مثل حروب أخرى، تنقضي، لكنّها لا تجد حلاّ أبدا. ومن حين إلى آخر كانت تمرّ سيّارة مدنية ولا أحد بإمكانه الجزم أنّها لن تتعرّض للحجز. كان *أليغريا* يعرف أنّ كلّ من لهم سلطة التّحرك بحريّة يحتمل أن يكونوا أعداء له، فقد كان يجهل إلى أيّ الفريقين ينبغي لجندي أن ينضمّ بعد أن يربح حربا ويخسرها في آن.

وعلى الرّغم رغبته في التّخفّي لم يتجرّأ على الابتعاد عن الطّريق لأنّه كان يخاف أن يفقد القوى الضّرورية ليواصل العيش، وفي هذه الحالة، سيتمدّد على الطّريق ليعثروا عليه ويدفنوه على الطّريقة المسيحيّة، أو على الأقلّ، لن يقبلوا بأن تستحيل بقاياه طعاما للذّئاب والكلاب الوحشيّة الّتي كانت تتسكّع بصبر منتظرة نهاية ذلك السّفر المقدّس. وألحّت عليه فكرة تقول إنّه إذا كانت الأجساد ستبعث فإنّ الأمر يتطلّب أن يكون مظهر الهالكين مقبولا بعض الشّيء، والحال أنّه لم يتبقّ منه سوى تعفّن ذي رائحة كريهة ومهينة. كانت رائحته النّتنة من القوّة بحيث كان من المستحيل أن يمرّ دون أن يثير الانتباه برغم الخلنج والنشابة والرّبيع والزعتر.

كلّ تلك الاحتياطات جعلت الطّريق يمتدّ ثلاثة أيّام إضافيّة، واكتفى في اليوم الأوّل بالبطاطس المسلوقة، ولكنّه فيما بعد، ومع

تزايد برد القمة، لم يجد سوى أحد الأكياس ليستعمله ثوبا يلفّه في اللّيالي لحفظ حرارة الجرح عندما تشتدّ الشّمس في الظّهيرة.

وأخيرا وصل إلى *صوموسييرا*، قرية من الغرانيت والحجر يحتاجها المشهد ليصبح جميلا. وصل بعد الزّوال، ساعدته الشّمس المائلة القويّة على الاقتراب من المنزل الصّغير الّذي اتّخذه الحرّاس مقرّا لهم. هنالك كان جنود الجيش الّذي ربح الحرب الأخيرة، باللّباس الرّسميّ، بأحذيتهم، ومعاطفهم الرّخيصة والأسلحة الّتي كان مكلّفا، طوال سنوات، بتنظيم توزيعها. لم يشعر بأيّ حنين أو ندم لكنّه شعر ببعض شَجنٍ.

تأمّلهم من خلال نظره الحسير خلال ساعات إلى أن نزل اللّيل، وكان على الجنود إيقاد النّار لإضاءة الطّريق وليتدفّئوا. تأمّل عمليّة تناوب الجنود على الحراسة الّتي تنجز بشكل مضحك، عمليّة تتمّ دون معرفة بالأمر وبفتور كان يعكس ضجرا أكثر ممّا كان يشير إلى نصر.

ربّما واتته حينذاك الفكرة الّتي سجّلها في تقييدات عثر عليها بجيبه يوم موته الثّاني، الحقيقي، ذاك الّذي حدث فيما بعد، لمّا رفع غطاء الحياة ببندقية منتزعة من حرّاسه.

«هل هؤلاء الحرّاس النّحيفون والضّجرون الّذين أراهم هم الّذين انتصروا في الحرب؟ لا، إنّهم يريدون العودة إلى منازلهم، حيث لن يصلوا بصفتهم جنودا منتصرين، ولكن بصفتهم غرباء عن الحياة وغائبين عمّا يعنيهم، وسيتحوّلون، على التّدريج، إلى

مهزومين. سيختلطون بأولئك الّذين هزموا وسيتميّزون منهم بآثار الأحقاد المتعارضة. وسيكون مآلهم أنّهم سيخافون، كما الشأن عند المهزوم، من المنتصر الحقيقيّ الّذي انتصر على الجيش العدوّ وعلى جيشه نفسه. فقط بعض الموتى سيتمّ اعتبارهم مؤثّرين في الحرب».

كل التّأملات، -بالإضافة إلى الذّكرى- لا بدّ أنها ظلّت مدفونة تحت الحمّى، والجوع، والتّقزز الّذي كان يشعر به تجاه نفسه. وبدأ يزحف مستجمعا بعض قوى ماتزال فيه، إذ لم يعد قادرا على الوقوف، واقترب من الحرّاس ببطء دون أن يعير اهتماما للاندهاش والنّفور اللّذين أحسّ بهما الجنود وهم يرَون هذه الفضلات تزحف.

فلمّا تغلّب على بكائه قال:

- أنا واحد منكم.

الهزيمة الثّانية: ••••
أو مخطوط عُثر عليه في طيّ النّسيان[1]

عُثر على هذا النّصّ عام 1940 بمرج بأعالي صوميبدو، حيث تتواجه منطقتا أستورياس وليون. كما عُثر على هيكلٍ رجلٍ راشدٍ وجسدٍ عارٍ لرضيع محفوظٍ بشكل مدهش فوق أكياس من القنّب موضوعة على نضيدة من التّبن، وكان يغطّيهما جلدُ ذئبٍ وصوفُ ماعزٍ جبليٍّ ونباتُ سرخس جافّ. كان الجسدان متلاصقيْن وملفوفيْن في غطاء ملاءة بيضاء، «كأنّهما يشكّلان عشّا»، وفي الوثيقة سجّل تتناقض نظافتُه مع المسكن المتّسخ النّتن البائس. كانت هنالك بقايا جافّة من بقرة دون قوائم ودون رأس ما تزال تحتفظ برائحتها الكريهة. وفي عام 1952، خلال بحثي عن بعض الوثائق في الأرشيف العامّ للحرس المدنيّ، عثرت على ظرف أصفر كتب عليه: «هالك مجهول الهويّة». وكان في الظّرف دفتر بمعجون مشمّع، أوراقه قليلة وبها مربّعات ومضمونها هو ما أنقله. كان مكتوبا بخطّ جميل ومنظّم، حروف الكتابة فيه كبيرة بدأت تصغر بالتّدريج كأنّ المؤلّف بدت له أشياء إضافيّة للحكي فخشي ألّا يسع الدّفتر، أمّا الهوامش فتبدو أحيانا

(1) وصل هذا الفصل، مع بعض التحويرات، إلى نهائيات الجائزة الدولية للقصص ماكس أوب 2002، ونشرته ماكس أوب. تشكراتي للذين أذنوا لي بنشره وأدراجه في مكانه الأصلي.

مزّينة برموز غير مفهومة أو بتعليقات مكتوبة في وقت لاحق... هذا الأمر يستخلص أولًا من شكل الخطّ (وهو، كما قلت، يصغر شيئا فشيئا ليصبح أكثر دقّة) لأنه، في ما يبدو، يكشف عن حالات نفسيّة متباينة. وعلى أيّة حال، أسجّل هذه التّعليقات فيما يقابلها من صفحات. وقد عثر راع على الدّفتر موضوعا فوق كرسيّ تحت حجر ثقيل ما كان ليتركه أحد هناك بغير ترتيب مسبق. وكان كلّ ما سجّله حارس الأمن الّذي رفع التّقرير صرّة جلديّة خاوية وفأسا وسريرا دون فراش وكأسين من طين فوق الموقد المنطفئ. كان لباس نسائي متواضع وأسود معلّقا. ولم يتمّ العثور على علامات إضافيّة للحياة، غير أنّ التّقرير يسجّل - وهذا ما دفعني إلى قراءة المخطوط - أنّ كانت هنالك جملة تقول: «شرذمة مفضوحة لطيور ليليّة»، وهذا هو النّصّ:

الصّفحة 1

ماتت *إلينا* عندَ الوضع. لم أتمكّن من إبقائها في هذه الجهة من الوجود. لكنّ ما يحيّر هو أنّ الطّفل مايزال حيّا.

إنّه هنا، مرتخ، يرتجف فوق قماش نظيف إلى جانب أمّه المتوفّاة. وأنا لا أدري ما الّذي عليّ أن أفعله. لا أجرؤ على لمسه. بكلّ تأكيد سأتركه يموت إلى جانب أمّه الّتي ستعرف كيف تعتني بروح طفل وتعلّمه أن يضحك إذا كان هناك بالفعل مكانٌ تضحك فيه الأرواح. لن نهرب الآن إلى فرنسا. لا أريد الوصول إلى نهاية الطّريق دون *إلينا*. فليس هناك طريق في غياب *إلينا*.

كيف يمكن تصحيح الخطإ عندما يكون المرء حيّا؟ لقد رأيت موتى عديدين، لكنّي لم أتعلّم كيف يمكن للمرء أن يموت.

الصّفحة 2

ليس من العدل أن يباغتنا الموت بهذا الشّكل المبكّر دون أن يكون هنالك متّسع من الوقت لتعلن الحياة عن ولادتها.

تركت كلّ شيء كما كان. لا أحد في إمكانه أن يقول إنّني تدخّلت. الأمّ ميّتة والابن يعلن عن حياته بحركاته المتكرّرة وأنا جامد من أثر الخوف. رماديٌّ هو لون الهروب وحزينةٌ هي إشاعة الهزيمة.

(هنالك مقطع شعريّ... ويمكن قراءة بعض الكلمات منها *«متين»*، *«دون ضوء»* أو *«ضوئيّ»*، الأمر غير واضح، *«نسيان الضّجيج»*. وعلى الهامش وبخطّ أصغر جملةٌ تقول: *«هل هذا الطّفل هو سبب الموت أم هو ثمرته؟»*).

الصّفحة 3

أريد أن أترك كلّ شيء مدوّنا لأشرح لمن سيعثر علينا بأنّه هو أيضا مُدان، هذا إذا لم يكن هو أيضا ضحيّة. ألتمس ممّن سيقرأ ما أنا بصدد كتابته أن ينثر بقايانا على الجبل. لم تستطع *إلينا* الوصول إلى نقطة أبعد، وأنا والطفل نريد أن نظلّ إلى جانبها. تهمتي الوحيدة أنّني لم أعمل على تجنّب ما وقع. ولم أتعلمّ أن أراوغ وقد فصل الحزنُ

عنّي *إلينا* بمنجل، بالإضافة إلى أنّي لا أتقن سوى الكتابة وحكي القصص. لا أحد علّمني أن أتحدّث حينما أكون وحيدا، ولا أحد علّمني أن أقِيَ الحياة من الموت. أكتب لأنّني لا أريد أن أتذكّر كيف تُقام الصّلاة، ولا كيف توجّه اللّعنات.

كيف لقصّة بهذا الجمال أن تنتهي في جبل تهزّه الرّيح؟ نحن الآن في شهر أكتوبر، غير أنّ الخريف في هذه الأعالي يتحوّل كل ليلة إلى شتاء.

بكى الطّفل طَوال اليوم بقوّة مدهشة حتّى جعلني أفكّر فيه وإن كنت قد سمّرت نظرتي في وجه *إلينا* الميّتة، ومرّ الصّباح بأكمله وأنا لا أعيره أيّ اهتمام. وانتبهت إلى أنّي لم أذرف أيّ دمعة، وقد يكون ذلك لأنّ بكاء الطّفل كان كافيا وضروريّا. وأمّا أنا فما كان بإمكاني البكاء بكلّ هذه الحرقة، وما كنت لأستطيع الصّراخ بكلّ هذا الحنق. بكيتُ *إلينا* دون أن أبذل أيّ جهد. وكيف يمكن لإنسان أن يبكي وأن يغشى عليه في الوقت نفسه؟ يبدو أنّ الطّفل لم يعد يحسّ بأيّ شيء. اقتربت لأنظر إليه فتبيّن لي أنّه مازال يتنفّس، غير أنّي شعرت -حينما حاولت أن أحركّه- كأنّ أحدًا نزع عنه هيكله العظمي.

الصّفحة 4

تأمّلت مليّا وجه *إلينا* الأبيض، لم يعد شحوبها بتلك القوّة الّتي كان عليها في لحظة الاحتضار، لقد فقدت كلّ الألوان... ربّما كان الموت شفّافا ومجمّدا. وخلال السّاعات الأولى شعرت بالحاجة إلى

أن أُبقي يدها بين يديّ، لكنّي انتبهت، شيئا فشيئا، إلى أنّي ألمس أصابع لا تداعبني، وخشيت أن تكون هذه هي الذّكرى الّتي ستظلّ مطبوعة بجلدي المنهك. مرّت عدّة ساعات دون أن ألمسها، وفقدت القدرة على أن أتمدّد إلى جانبها خلافا لما يفعل الطّفل، فهو يرقد الآن منهك القوى مستكينا قرب أمّه للحظة كأنّه يرغب في إعادة الدّفء إلى الجسد الجاثم الّذي كان له ملجأ خلال الفترة الّتي استمرّ فيها دويّ الحرب.

أجل. لقد خسرنا حربا، وإذا تركنا الفاشيّين يقبضون علينا فسيكون ذلك بمنزلة إهدائهم نصرا آخر. رغبت *إلينا* في أن تتبعني، لقد أدركنا أنّ قرارنا كان خاطئا. ولكنّي لست أريد التّخلّي عن فكرة أنّ خطأ بهذا السّخاء لم يرتكب قط.

كان علينا أن نأخذ بعين الاعتبار موقف والدَيها اللّذين أستسمحهما لأنّهما وافقا مضطرّين على أن ترافقني *إلينا* في رحلة هروبي.

قلت لها: عليك أن تمكثي، لن يؤذوك. أجابت: سأتبعك. وإن قتلوني سأموت. كنّا نتحدّث عن الموت لنترك الحياة ظاهرة للعيان. لكنّنا أخطأنا. ما كان علينا أن نبدأ سفرا بكلّ هذا الطّول وهي حامل في شهرها الثّامن. لن يعيش الطّفل وأنا سأترك نفسي أسقط على المراعي الّتي سيكسوها الثّلج إلى أن تزهر في بؤبؤة عيني أزهار ستزعج من فضّلوا موت الشّعر.

ميغيل، ستتحقّق نبوءتك!

أين أنت الآن يا *ميغيل*، وما الّذي يجعلك تتخلّف عن مواساتي؟

أنا مستعدّ لأن أضحّي بما لا يحصى من الزّمن مقابل أن أتمكّن من سماع أبياتك الرّقراقة وكلماتك المتّزنة، ونصائحك الصّادقة. فمع كلّ هذا الألم، ربّما أصبح شاعرا يا *ميغيل*. وقد لا تحتاج إلى أن تظهر كلّ ذلك الرّفق الّذي أظهرته دومًا. هل تتذكّر عندما كنت تناديني رامي السّهام البروليتاري؟ كانت *إلينا* تعزّك لذلك ستواصل معزّتها لك رغم موتها.

الصّفحة 5

هل كانت *إلينا* ستفضّل أن أفصل الطّفل عن غشاء الجنين الّذي يلفّه، وأن أربط حبل سرّته بإحدى فردتي جزمتي، وأن أحاول إهانة المنتصرين بهذا الحياة وهي تفرض نفسها وتأخذ بثأرها؟ أظنّ أنّها ما كانت تريد ابنا مهزوما. أنا لا أرغب في ولد يكون ثمرة الهروب. ابني لا يريد حياة وُلدت من رحم الموت. أم تراه يريدها؟

إذا كان الإله الّذي حدّثوني عنه طيّبا، فسيتيح لنا فرصة اختيار ماضينا، لكن لا *إلينا* ولا ابنها بإمكانهما الرّجوع إلى الوراء في هذا الطّريق الموصل إلى هذه المرجة الّتي ستكون بمنزلة قبر لـ*إلينا*.

هذا الصّباح، نمت متّكئا على الطّاولة. أيقظني بكاء الطّفل الّذي هو الآن أقلّ حدّة ويذكّر بفترة النّقاهة. فالبارحة لم أُبال بحنقه لكنّ شكواه خلّفت اليومَ في حزنا في نفسي. لا أدري إن كنت مذهولا بسبب النّوم والبرد أم أنّ قواي بدأت تخور هي الأخرى بعد ثلاثة أيّام دون تناول أيّ طعام، لكنّ المؤكّد هو أنّني -ومن غير تفكير في

الأمر- وجدتُني أرضعه قطعة ثوب مبلّلة بحليب ممزوج بالماء. كان في أوّل الأمر متردّدا بين أن يعيش أو أن ينساق وراء مشروعي، لكن بعد برهة بدأ يمصّ السّائل من قطعة الثّوب. لكنّه تقيّأ ثم واصل المصّ بشراهة. إنّ الحياة تفرض نفسها مهما كان الأمر مكلّفا.

وأظن أنّني أخطأت حينما حملته بين ذراعيّ، منقذا إيّاه من الموت، غير أنّ حرارة جسمي والغذاء الّذي تمكّن من تناوله أغرقاه في سبات عميق.

الصّفحة 6

صنعت مهدا بأكياس من القت وغلّفته بغطاء السّرير المنسوج الّذي ورثته *إلينا* عن جدّتها، وقد ألحّت على أخذه معها كأنّ كلّ ماضيها يتلخّص فيه. لم يعد الغطاء بالجاذبيّة نفسها الّتي كانت له عندما هربنا معا، لكنّه يمنح الطّفلَ دفئًا، فمن المحتمل أنّه مازال محتفظا ببعض رائحة الأم.

وكان عليّ أن أعترف بأنّني لم أحتمل المقارنة بين الحياة والموت.

وأمّا أن أراهما معا على الفراش نفسه، الوجه إلى الأعلى و*إلينا* خائرة القوى إلى أقصى حدّ، وهو عاجز عن الإتيان بأيّ حركة، فقد جعلني أشعر بأنّني أضع خطّا بين الحقيقيّ والمزيّف. وبشكل فجائيّ، كان الموت موتا ولا شيء غير الموت، بعد التّخلّص من بساطة الجسم، ودون البعد الحيوانيّ في الحياة. إنّ جثة، بعد مرور ثلاثة أيّام، تصبح معدنا من دون رطوبة النّفس، ومن دون هشاشة

الأزهار. إنّها مجرد شيء أعزل عاجز على أن يشعر بأنّه محاصر، ومع ذلك، فهو يقبع كأنّه لا يريد أن يثير الانتباه. إنّ جثة، بعد مرور ثلاثة أيّام، هي مجرّد إحساس بالوحدة، تفتقد موهبة الحزن. ويصبح حبل السرّة، بالتّدريج، أكثر جفافا حين يشرع الطّفل في البكاء.

(على جوانب هذا النّصّ هنالك رسم دقيق جدّا حيث يمكن أن نتبيّن نجمة هاربة أو تشخيصا طفوليّا لطائرة من ورق وهي تصطدم بهلال يبكي).

الصّفحة 7

لم أتناول طعاما. مازال بحوزتي بعض الخبز الجافّ وسمك مجفّف تزوّدنا بهما في رحلة الهروب... عاد الطّفل إلى مصّ الحليب الممزوج بالماء. يبدو أنّه يحسّ بالشّبع. اليوم سأدفن أمّه إلى جانب شجرة البلّوط. ولا أملك ما يكفي من القوّة لحلب البقرات، ولكنّها معرّضة للأمراض وخوارها هو الآخر لا يتركني أفكّر في *إلينا*. آمل أن يصعد أحد من الوادي ليقتاد الماشية حتّى لا يكون عليّ أن أقرّر إن كنت سأتناول طعاما أم أترك نفسي تتهاوى. ولكن في زمن الرّعب هذا، ترتّب الماشية حياتها على هواها. ما لم يصل فصل الشّتاء، ستظلّ هذه الحيوانات تتجاهل وجود الذّئب والبرد والعلاقات الّتي تقيمها قوى الطبيعة فيما بينها. واليوم تحديدا، نحن تحت رحمة الظّروف نفسها. ولا بدّ من حلب البقرات الأربع أو الخمس لأنّها ستهلك إن لم يقم أحد بذلك. كيف اختفى من كان يعتني بها الآن بالضّبط؟ ولكن هذا

لا يهمّ في هذه الأيّام المشؤومة. زد على ذلك، أنّني في انتظار اتّخاذ قرار وسأحتاج إلى الحليب من أجل الطفل.

السّماء تمطر. هذا أفضل. لا أحد سيتجرّأ على الصّعود حتّى هذه المرجة. ورغم هذا المناخ القاسي تمكّنت من إدخال بقرتين إلى الإسطبل. إحداهما تعاني من التهاب الضّرع... كان عليّ أن أقتلها حتّى لا تتعذب. لقد أكل الطّفل اليوم ثلاث مرّات.

الصّفحة 8

البارحة، دفنت *إلينا* تحت شجرة زان. هي شجرة أكثر هشاشة من شجرة البلّوط وأكثر ارتخاء. صوت ارتطام التّراب فوق جسمها المتصلّب ورائحة جسدها المتحلّل جعلاني أبكي وأختنق إلى حدّ أنّي شعرت بأنّني أنا أيضا سأموت. غير أنّ الموت لا يُعدي. وأمّا الهزيمة فتفعل. وأشعر بأنّي ناقل لهذا الوباء. وأينما أحلّ ستكون رائحتي رائحة هزيمة. وبسبب الهزيمة ماتت *إلينا*، وبسبب الهزيمة سيموت ابني الّذي لم أمنحه بعد اسمًا. أنا خسرت حربا و*إلينا* الّتي لا أحد كان بإمكانه أن يعتبرها عدوّة له، ماتت مهزومة. وابني، ابننا، الّذي لا يدري أنّه ثمرة التماعة خوف، سيموت مريضا بالهزيمة.

وضعت حجرا كبيرا فوق قبرها. لم أكتب اسمها لأنّه إذا كانت هنالك ملائكة، فأنا متأكّد أنّها ستتعرّف إلى روح *إلينا* السّخية من بين آلاف الأرواح السّخيّة.

أحاول أن أتذكّر أبياتا لـ*كارسيلاسو* لأصلّي على قبرك، *إلينا*،

ولكنّي نسيت الآن كلّ شيء، بما في ذلك الذّاكرة نفسها. ينبغي أن أتذكّر تلك الأبيات.

(هنالك عدّة محاولات فاشلة لكتابة القصيدة، ولكن تمّ شطب كلّ شيء، وإن كان بالإمكان قراءة الأبيات التّالية:

الدّموع الّتي على هذا القبر
تنسكب اليوم وستنسكب
هي من أجلك، وإن كانت بلا ثمرة...
إلى أن تغلق تلك اللّيلة غير المنتهية
عينيّ اللّتين رأتاك
تاركتين إيّاي مع آخرين يرونك).

الصّفحة 9

لا أعرف لماذا أدوّن كلّ شيء في هذا الدّفتر؟ غير أنّي سعيد بإحضاره معي. لو كان معي أحد لكان بإمكاني أن أتحدّث إليه. غير أنّه تتملّكني لذّة مرضيّة عندما أتخيّل أنّ أحدا مّا سيقرأ ما أكتب حين يتمّ العثور علينا ميّتين أنا والطّفل... وضعت شاهدا من حجر على قبر *إلينا* لتكون هناك ثلاث حالات مثيرة لتأنيب الضّمير، وإن كان وقت الشّفقة قد ولّى في الحقيقة. البرد قارس. وقريبا سينزل الثّلج وستسدّ جميع الطّرق المؤدّية إلى هذه المرجة. وسيكون أمامي فصل الشّتاء بأكمله لأقرّر أيّ ميتة سأموت. أجل، أظنّ أنّ زمن الشّفقة قد ولّى.

الصّفحة 10

(سلسلة من الصّور مرسومة بشكل سيّء، ولكن يبدو بوضوح أنّها لوجوه، ومن بينها يبدو ثلاث مرّات وجه طفل، ومرّتين وجه امرأة –المرأة نفسها في الحالتين معا– ووجوه مختلفة لعجائز من الجنسين، بعضهم بطاقيّة، وبعضهم الآخر بمنديل مربوط على العنق وكلب مرسوم بأكمله. وتحت كلّ هذه الرّسوم كتبت جملة: *«أين ترقدون؟»*).

البقرة المريضة تخور وتخور، ولم تعد تمنح حليبا. لم أتجرّأ على قتلها بعدُ لأنّني أنتظر أن تتشكّل قطع ثلج لتخزينها. هناك حطب كثير وسأتمكّن من تأمين غذاء للأخرى إذا ما اجتثثت عشبا من تحت الثّلج. ولكنّي قلق لأنّي لا أملك غير قلم واحد وتتملّكني رغبة في أن أكتب ما هو ضروريّ ليعرف من سيلقانا في فصل الرّبيع أيّ موتى عثر عليهم.

(واعتمادا على حروف التّاج الشّبيهة بحروف المطبعة كتبت هذه الجملة: «أنا شاعر دون أبيات»).

الصّفحة 11

لم يتوقف الثّلج عن التّساقط اليوم. من المفروض أن تكون هذه الجبال إقامة لكلّ فصول السّنة.

ومازال الطفل على قيد الحياة والثّلج من حولنا كأنّه كفن.

ومازال لدينا ما يكفي من اللّحم، فقد طهيتُ بالبُخار جزءًا من البقرة الميّتة، وأمّا الجزء الآخر فإنّ الشتاء المبكّر سيتكفّل بحفظه من التعفّن. ولحسن الحظّ لدينا ما يكفي من الحليب بفضل البقرة الحيّة الّتي تقاسمنا الآن المأوى وتمنحنا دفئا. ومازالت البطاطا الحلوة الّتي سرقناها من بيرلونيس على حال جيّدة بفعل الثّلج ويبدو أنّ الطّفل يجد مذاقها لذيذا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الشّراهة الّتي يتناول بها الحساء الّذي أعدّه له. من المدهش أن الطّفل بدأ يحتلّ الفضاء تدريجيّا. أتذكّر حينما كان عبارة عن شيء غريب، شيء ما كان ينبغي له أن يكون هناك. أمّا الآن، فالكوخ بأكمله يدور حوله، كأنّه المركز. وفي الأيّام المشمسة، الّتي لا تظهر فيها الشّمس إلاّ لماما، يعكس فراشنا الضّوء كأنّه مرآة، ويتجمّع الصّمت كلّه حول الأصوات الّتي يبثّها الطّفل باستمرار، بما في ذلك صوت بكائه حينما يفاجأ بأنّ هنالك قدما عارية تطير في الهواء أو بقرة ذابلة ومستكينة، وكان يُفترَض أن يوجد منزل يحضن الأسرة. غير أنّ تنفّسه الوديع المنتظم يضع حدّا للشّعور بالوحدة الّتي لولاه لتمكّنت منّي.

الصّفحة 12

عثرت على عنزة برّيّة أكلت الذّئاب نصفها. ماتزال هناك وفرةٌ في الطّعام ولكنّنا اليوم سنأكل من بقايا العنزة. وبالاقتصار على العظام والأحشاء تمكّنت من طهي حساء خفيف يقبل عليه الطّفل بشكل جيد.

(هنا يقع تحوّل دالّ في نوعيّة الخطّ. ورغم الحفاظ على دقّة الكتابة، فإنّ الخطوط تبدو كأنّها كُتبت على عجَلٍ، أو على الأقلّ بتردّد. لا بدّ أنّ وقتا طويلا مرّ).

هل سيتعرّف عليّ والداي إذا ما رأياني؟ لا استطيع أن أرى نفسي لكنّي أشعر بأنّي متّسخ وبائس، لأنّني أصبحت ابنَ هذه الحرب الّتي كانا يريدان تجاهلها لكنّها غمرت بالخوف اسطبلاتهما وبقراتهما الجائعة وأراضيهما المزروعة. ومازلت أتذكّر قريتي السّاكنة الفقيرة الّتي لا تبالي بأيّ شيء باستثناء الخوف الّذي أغلق عينيها عندما قتل السّيد *سيرفاندو*، معلّمي، وأحرقت جميع كتبه ونفي جميع الشّعراء الّذين كان يستظهر أشعارهم عن ظهر قلب إلى الأبد.

لقد هزمت. لكن كان بإمكاني أن أنتصر. هل سيحتلّ آخر مكاني؟ سأحكي لابني، الّذي ينظر إليّ كأنّه يفهمني، أنّني ما كنت لأترك أعدائي يهربون دون حماية، وما كنت لأحكم على أيّ كان لمجرّد أنّه شاعر. انطلقت بقلم وورقة إلى ساحة المعركة ومن جسدي خرجت كلماتي متلاحقة مواسية الجرحى، ومن المواساة الّتي كنت أصفُ خرج جنرالات متوحشوّن اعتبروا أنّه من الطّبيعي وجود جرحى من الجنرالات، وأنا في الوسط بشعري. متواطئ. رغم وجود الموتى.

الصّفحة 13

(هنالك جملة لحقها شطب، ولذا فهي غير مقروءة. كتب نصّ

هذه الصّفحة حول حدود يد طفل. والرّاجح أنّ يد الطّفل كانت له بمنزلة خطاطة، ومع ذلك فقد كتب فوقها).

مرّ الوقت ولن أعرف كيف أحدّثكم عن الأيّام لأنّها تتشابه إلى درجة أنّي تعجّبت من أنّ الطّفل يكبر. أعيد قراءة دفتري وأرى أنّني لم أعد حيث كنت. وإذا ما فقدت القدرة على الغضب، ما الّذي سيتبقى لي؟ فصل الشّتاء هو علبة مغلقة تتدافع فيها عواصف الثّلج، وهذه الجبال مازالت تبدو المكانَ الّذي تقضي فيه فصولُ الشّتاء فصل الشّتاء. أصبح حزني أقوى بسبب البرد. وصرت أشعر بالخوف الّذي طالما خشيته. أخاف أن يمرض الطّفل وتموت البقرة الّتي أكاد لا أتمكّن من إطعامها بقطع جذور النّباتات القليلة الّتي فاجأها الثّلج وهي ماتزال حيّة. أخاف أن أسقط مريضا وأن يكتشف أحد أنّنا هنا في أعلى الجبل. أخاف من كلّ هذا الخوف، ولكنّ الطّفل لا علم له بذلك. *إلينا*.

تعول الرّيح عبر الجبال في اللّيالي مُصدرة أنينا يكاد يكون إنسانيّا، كأنّها تعلّمنا -أنا والطفل- ما ينبغي أن تكون عليه شكوى البشر. ولحسن الحظ، بدا هذا المرج قادرا على أن يتحمّل بشكل جيّد مرور كلّ العواصف.

الصّفحة 14

اليوم قتلت ذئبا. جاءت أربعة ذئاب تطوف حول الكوخ. تملّكني الخوف في البداية، لأنّ حاجة الذّئاب إلى الأكل تُكسبها شراسة تكاد

تكون إنسانيّة، ولكنّي فكّرت أنّها قد تكون مصدر غذاء. ولمّا بدأ الذّئب الأكبر حجما يحكّ الباب فتحت شقّة الباب بعناية وبالقدر الّذي يكفي لإدخال رأسه ثم ضغطت. وبالفأس الّتي كنت أستعملها مرتاجا وجّهت إليه ضربة جعلت شراهته تسيل مع دمه... سآكله وسأهيّئ بأحشائه طعاما يناسب الطّفل. هذا أمر جيّد. غير أنّي عدت لأتعايش مجدّدا مع رائحة الدّم، عدت إلى سماع أزيز الموت، رأيت مرّة أخرى لون الضحايا. وهذا أمر مقرف حقّا.

(في هذه الصّفحة، هناك رسم يمثّل هيئة ذئب مع طفل يعود القهقرى، تبدو حالتهما منشرحة، وقد ارتفعا فوق حقل مزهر كأنّهما يطيران).

الصّفحة 15

قال ذئب لطفل إنّه بلحمه الفتيّ
سيقضي فصل الشّتاء
قال الطّفل للذّئب إنّه سيأكل رجلا واحدة فقط
وبالنّظر إلى صغر سنّه
سيحتاج إلى أن يُظهر ما عنده من الشّراسة حتّى يخشاه الآخرون
وستأتي اللّحظة الّتي سيحتاج فيها إلى أن يتغذّى بلحم ذئب مشويّ بسبب عرجه...
تبادلا النّظرات وشعرا بحزن عارم
لاضطرارهما إلى أن يسيء أحدهما إلى الآخر
إلى درجة أنّهما قرّرا أن يعيدا المشهد

متجنّبين الخديعة المتمثّلة
في أن يكون أمرا ضروريّا على الدّوام،
لكي يعيش شخصان يتحابّان بغضّ النّظر عن عواطفهما،
أن يعيش أحدهما ويموت الآخر
(أمّا الخلاصة)
فكلاهما مات جوعا.

(تحت هذه الأبيات كان هناك توزيع موسيقيّ لا يمكن عزفه، وكثيرون هم التّقنيّون الّذين حاولوا فكّ شفرة هذا التّوزيع المحتمل، ولكن لا أحد تمكّن من ذلك).

الصّفحة 16

إن السّماء تثلج. تثلج تثلج. وبفعل الوهن المتمكّن منّي، تتزايد الصّعوبة الّتي أشعر بها عندما أقطع الحطب قصد تدفئة الكوخ حيث نعيش، أنا والبقرة والطّفل. غير أنّ الطّفل، الّذي لم أختر له بعد اسما، يتمتّع بحيويّة مدهشة. يصدر أصواتا من حنجرته، حينما يكون مستيقظا، كأنّه يغرد. وقد كان يسرّني أن يكون مستيقظا لأنّ ارتباطه الكلّيّ بي يمنحني أهميّة لم يمنحني إيّاها أحد باستثناء *إلينا*. ومن جهة أخرى، تشلّني عيناه وهما تكادان تتجاوزان محجريهما حتّى إنهما لتبدُوان ضخمتين مع خدّين متهدّلين. إنّه نحيف جدّا، والبقرة هي الأخرى نحيفة جدّا، وإن كانت ماتزال تمنح بسخاء حليبا كافيا لكلينا. وأنا نحيف جدّا ولا أستطيع حراكا.

لا أدري في أيّ شهر نحن؟ هل حان أوان احتفالات رأس السّنة؟

اليوم، وأنا أتتبّع أثر حيوان، نزلت إلى أسفل الجبل في اتّجاه *سوطري*، ورأيت مجموعة من قاطعي الخشب في السّهل. شعرت في داخلي بخوف مألوف وكثيف يحيا من جديد. الآن، أنا فخور بخوفي، فقد رأيت، في نهاية هذه الحرب الوحشيّة، عددا كبيرا من النّاس يموتون بسبب تهوّرهم. وإذا بقيت هنا سنموت جميعا: أنا والبقرة والطّفل، وإذا نزلنا إلى السّهل، سنموت جميعا: أنا والبقرة والطّفل.

الصّفحة 17

لقد فكّرت مليّا في الأمر، لكنّي لا أريد أن أمنحهم نشوة النّصر الأخيرة. قد يكون من العدل أن أموت: لأنّني لست سوى شاعر رديء غنّى للحياة في المتاريس حيث كان يسكن الموت. لكن أن يموت الطّفل فذاك أمر ضروريّ. ومن ذا الّذي سوف يحدّثه عن لون شعر أمّه؟ عن ابتسامتها؟ عن الرّشاقة الّتي كانت تتجنّب بها الرّيح حتّى لا تمسّها؟ من سيطلب عفوه لأنّه أتى به إلى الحياة؟ وإذا ما بقيت حيّا، فما الّذي سأحكيه له عن نفسي؟ هل أقول له إنّ *كافييديس* بلدة معلّقة على جبل له رائحة الحرّ والحطب، وأنّه كان لديّ معلّم يستظهر أشعارا لـ *غونغوراوماتشادو*، وأنّه كان لديّ أبوَان لم يستطيعا إقناعي بالبقاء إلى جانب إسطبلهما، وأنّني لا أعرف ما كنت أبحث عنه بمدريد في عزّ الحرب، منشدا أشعارا بين طلقات

الرّصاص؟ هذا هو الأمر يا بنيّ. كنت أريد أن أكون منشد أشعار بين الرّصاص.

(خطّ صارم وعميق يميّز هذه الجملة الأخيرة إلى حدّ ثقب الدّفتر ذي المشمّع الأسود).

الصّفحة 18

أنا عاجز عن مواصلة تغذية البقرة، والبقرة عاجزة عن مواصلة تغذية الطّفل. سأحفر تحت الثلج بحثا عن قذى العشب الّذي يزداد بمرور الأيّام ضعفا وندرة... عثرت على عقدة في جذور البندق اليابس، وباستعمالها سأتمكّن من إعداد عجينة لا مذاق لها، غير أنّي بعد أن أغلّيها وأخلطها، سأعطيها إلى البقرة والطّفل. لا أدري إن كانت تصلح غذاء، لكنّي أعطيه ريقي ويظلّ على قيد الحياة. وعلى الرّغم من أنّه شديد الضّعف فقد بدأ يحاول التّحرّك إلاّ أنّ القوّة الكافية تنقصه. ها هو يتقوّس وهو لا يقدر إلاّ على إسناد الرّأس والرجلين، لكنّه لا يلبث أن يتهاوى بعد ذلك على الفور. ولو كنت أستطيع لنزلت إلى السّفح لأطلب غذاء. ولكن من المستحيل الخروج من هذه الجبال. لقد ولدت ببلدة لا تعرف الثّلج، ولا أحد علّمني إزالة الثلج الصّامت. وعندما أبتعد عن الكوخ أكثر من المعتاد، أغرق حتّى الخاصرة وأتأخّر طويلا في الخروج من المصيدة البيضاء. ثمّ إنّ ما تركته الذّئاب من جثّة البقرة الميّتة كان درجة من الصّلابة بحيث أنّي لن أتمكّن من قطع شيء ولو

باستعمال الفأس. ولكن من حسن الحظّ أنّ البقرة مكسوّة بالثلج، وقد حاولت البارحة أن أخرجها من تحت الأرض علّني أعثر على شيء ضامر في أحشائها.

الصّفحة 19

اكتشفت حيوانا، نصفه لحم ممزّق ونصفه الآخر هيكل عظميّ، وعنقه ممدود كأنّه يحاول الهرب ولكن دون جدوى. كانت ضلوعه القليلة المتبقّية تشكّل وعاء يبدو كأنّه لحفظ الرّوح. بيد أنّ روحه أيضا أكلتها الذّئاب.

(هنا يوجد رسم يصوّر رأس بقرة بشكل فنّيّ، في طول سهم، ويرسم أخاديد في الهواء. وتحته يوجد تعليق: أين يمكن أن توجد جنّة البقر؟).

أنا على استعداد لقتل البقرة الثّانية بما أنّه مازال فيها بعض اللّحم. لكنّي لن أتمكّن من حفظها في حال جيّدة. لو تركتها حيث يوجد الثّلج ستنتهي الذّئاب الّتي تتربّص بنا إلى أن تشتمّ رائحتها. داخل الكوخ يمكن أن أحافظ على درجة حرارة سيؤدي إلى تعفّن ما تبقّى من جسمها. هل ستظنّ البقرة أنّي أنقذها من الذّئاب أم ستعرف أنّ الذئاب هي الّتي تحول دونها ودون الفأس؟ لعلّها عرفت الحقيقة لهذا لم تعد تمنح حليبا.

(هنا توجد سلسلة أوراق، تسعٌ على الدّقّة، وقد قطعت في الوقت نفسه لأنّ الرّسم الممزّق نفسه يتكرّر فيها جميعها. في ترقيم

الصّفحات الّذي يأتي بعد الآن، لم نأخذ بعين الاعتبار الأوراق النّاقصة من الدّفتر).

الصّفحة 20

الطّفل مريض. يكاد لا يتحرّك. قتلت البقرة، وأنا الآن أعطيه دمَها، غير أنّه يصعب عليه أن يبتلع أيّ شيء. لقد غلّيت قطعا من اللّحم وعظاما إلى أن أصبح المرَق ثخينا وغامق اللّون. أعطيه إيّاه ممزوجا بماء الثّلج. كلّ شيء يفوح، من جديد، برائحة الموت.

إنّه ساخن جدّا. الآن أكتب وهو نائم في حضني. كم أحبّه. غنّيت له أغنية حزينة لـ*فيديريكو*:

بكاء جمجمة
تنتظر قبلة من ذهب
(في الخارج ريح قاتمة
ونجوم عكرة)

لم أعد أتذكّر الأشعار الّتي كنت أنشدها للجنود. فالذّاكرة هي أوّل ما يموت تحت وطأة الجوع. لم أعد قادرا على كتابة بيت واحد، بيد أنه تتردّد في ذهني مئات الأغنيات لتنويم ابني، تشترك كلّها في الكلمة ذاتها: *إلينا*.

اليوم قبّلته. قبّلته لأوّل مرة. نسيت شفتيّ من فرط عدم استعمالهما. تّرى ما الّذي شعر به عند تماسّه الأوّل مع البرد؟ إنّه لأمر فظيع، لكنّ عمره الآن ثلاثة أشهر أو أربعة ولا أحد قبّله قبل اليوم.

أنا وهو لوحدنا نعرف كم يطول الزّمن دون قبلة. والآن، من المحتمل أنّه لم يتبقّ لنا ما يكفي من الوقت لنعوّض لأنفسنا ما فات. الخوف والبرد والجوع والغيظ أمور ترجئ الحنان الّذي لا يعود إلاّ إذا اشتمّ رائحة الحبّ والموت كأنّه غراب. غير أنّه الآن في وضعيّة حيرة؛ فهو يشمّ رائحة الشّيئين معًا. هل هناك حنان أبيض وحنان أسود؟ *إلينا*، أيّ لون كان لحنانك؟ لم أعد أتذكّر. ولا أعرف حتّى إن كان ما أشعر به حزنًا. ولكنّي قبّلت الطّفل دون أن أحاول أخذَ مكانكِ.

الصّفحة 21

رائحة نتنة تسيطر على الجوّ. غير أنّني أتذكّر فقط رائحة الشمار.

(بحروف بارزة، بارزة جدّا، غطّت هذه الجملة ما تبقّى من الصّفحة المكتوبة بخطّ غير دقيق: *آه، من دونك لا يوجد أيّ شيء*).

الصّفحة 22

لم أعثر على قلمي وظللت لعدّة أيّام عاجزا عن كتابة أيّ شيء. هذا الوضع بمثابة صمت، بل بمثابة كمامة. ولكنّي اليوم عثرت على القلم تحت كومة من الحطب، وتملّكني إحساس بأنّي استعدت ملَكة الكلام. لا أتبيّن حقيقة مشاعري ما لم أعمد إلى تقييدها، ولذلك، في ما يبدو، ارتباط بتربيتي القروية. اليوم قضيت وقتا طويلا متسلّقا جذعا بلا أوراق محاولا العثور على أثر حيوان يَصلح أن يكون لنا

غذاء. رأيت منظرا طبيعيّا أبيض لا تتقاطع فيه الخطوط، فسيحا، لا متناهيا، تهزهزه ريح عنيدة باردة مع أزيز ما له من دَور سوى تثبيت الصّمت المهيمن. وبينما كنت مستغرقا في تأمّلي، تملّكني شعور لم أستطع تحديده، شيء لم أتبيّن حتّى إذا كان طيّبا أو خبيثا. الآن، بما أنّني عثرت على قلمي، أعرف ما كان: إنّها الوحدة.

لديّ شعور بأنّ كلّ شيء سينتهي ساعة انتهاء الدّفتر. لذا أكتب فقط خلال المساءات. ويبدو أنّ قلمي هو الآخر قد خسر الحرب، والرّاجح أنّ الكلمة الأخيرة الّتي سوف أكتبها ستكون «سوداويّة».

الصّفحة 23

الطّفل مات وسأسمّيه *رفائيل*، مثل أبي. لم يكن لديّ ما يكفي من الدّفء لأبقيه حيّا. لقد تعلّم من أمّه أن يموت دون أن يبالغ في إظهار عواطفه. ولم يرغب هذا الصّباح في أن ينصت إلى كلمات عزائي.

«شرذمة لئيمة من طيور محلّقة».

(تعليق المحرّر: سنة 1954، ذهبت إلى قرية بإقليم *سانتاندير* اسمها *كافييديس*. وهي قرية معلّقة على الجبل تعمّها رائحة البحر القريب، وإن كان لا يمكن رؤيتُه لأنّها تطلّ على داخل السّهل. سألت هنا وهناك وعرفت أن المعلّم، الّذي كانوا يدعونه السّيد *سيرفاندو*، أعدم سنة 1937 بتهمة أنّه جمهوري، وأنّ أنجب تلاميذه، وكان له من العمر ستّ عشرة سنة وكان يعشق الشّعر حدَّ الهوس، هرب في السّنة نفسها إلى منطقة تحت نفوذ الجمهوريّة ليلتحق بالجيش الّذي

خسر الحرب. ولم يسمع عنه أحدٌ خبرا؛ لا والداه *رفائيل وفيليسا*، اللّذين ماتا بعد انتهاء الحرب ولا أحد من القرية. كانت له سمعة مجنون لأنّه يكتب وينشد أشعارا، وكان اسمه *أولاليو صيبايوس سواريث*. وإذا صحّ أنّه صاحب هذا الكرّاس، فإنّه كتبه وعمره ثماني عشرة سنة، ولا أظنّها سنّا تليق بتحمّل كل هذا العذاب).

الهزيمة الثّالثة: ••••
أو لغة الأموات

بارتباك يليق بمن يلقي تعويذة يعتقد أنّها تقي من السّحر، ردّ *خوان صينرا*، مدرّس الكمان الجهير، بالإيجاب دون أن يكون واعيا بأنّ تلك الإجابة أنقذت حياته وإن بشكل مؤقّت.

سأل العقيد *إيار*، وهو يتخلّص من خموله، وقد شرع في الاقتراب من المتّهم يقوده شيء شبيه باهتمام عالم حشرات عند تركيزه على حركة شيء متناهي الصّغر:

- هل تعرّفت عليه حقيقة ؟

- نعم.

قصفه العقيد بصوت حادّ:

- نعم سيّدي العقيد.

- نعم سيّدي العقيد.

كان *خوان صينرا* واقفا منذ الفجر، مرتديا ثوب عمل أزرق وقميصا باليا يسمح بدخول الهواء وتدفّق الخوف. وقد حوّله هزاله المفرط، وتفّاحة آدم الّتي كانت تقفز مرتعبة كلّما ابتلع ريقه، وخمول همّته الّذي كان يجعل كتفيه يتقوّسان إلى درجة تجعل منه شيئا مقبّبا،

إلى ندبة إنسان عاجز عن أن يركّز نظره دون أن يشعر بالغثيان.

- أين؟

- بسجن *بوليير*.

كان العقيد *إيمار* قصير القامة، تطلّ يداه من حواشي الكمّ بقدر يكفي ليقبض بشكل دائم على سيجارة مشتعلة على طرفي سبّابته وبنصَره اللّذين كانا ينتهيان بأظافر ذات لون رماديّ متّسخ كأنّها مشيّطة بفعل حرارة التّبغ. كان ذا عنق ضامر، كأنّه طائر مشؤوم، يخرج من التلبيب الّذي يتوّج سترته الفضفاضة والبالية إلى حدّ لا يمكن أن توحي بأنّها لمحارب. ورغم ذلك كان يفيض حيويّة إزاء تلك الشّيخوخة، فقد زيّن وجهه شارب ناعم أفقيّ، يوازي الأرض موازاة تامّة، وهو إن لم يكن يُكسبه ملمحا شرسا، فقد كان، على الأقلّ، يحول دونه ودون الابتسام. بالإضافة إلى أوسمة، كانت تمثّل درعا واقية لصدره أكثر مما تمثّل تشريفا.

أمر بشكل قاطع:

- بسجن «*بوليير*» سيّدي العقيد.

- بسجن «*بوليير*» سيّدي العقيد.

- متى؟

- نقلوه من مقرّ المخابرات السّوفييتيّة بـ *شامبيري* في مايو 1938 سيّدي العقيد.

ومع أنّ هيئة المحكمة كانت مشكّلة من ثلاث عسكريّين، فإنّ القبطان *مارتينيث*، والفارس *ريوبو* توقّفا عن طرح الأسئلة واتّكآ

على ظهري كرسيّيهما تاركين بهذه الحركة لرئيسهما المباشر فرصة توجيه الوقائع كما يريد.

وإلى جانب المتّهم، الّذي لم يكن يبقيه واقفا سوى شعوره بالخوف، نجد الملازم أوّل *ألونصو* الّذي كان ينجز بتعب ظاهر مهامّ سكرتير المحكمة، وعندما لفتت انتباهه إجابات المتّهم، أوقف بشكل مؤقّت رسوماته المتداخلة الألوان الّتي تمثّل أعلاما موضوعة بعضها فوق بعض مشكّلة حقلا لامتناهيا من الرّايات المثنيّة كما لو أنّ الرّيح لم تكن موجودة. كان جالسا على طاولة مدرسيّة، وربّما اتّخذ، بسبب ذلك، هيئة تلميذ مجتهد. نظر إلى العقيد *إيمار*، ولمّا لم تلتق عيناه بعينيه استغرق مباشرة في عمليّة رسم ظلال تتوّج قمّة آخر علم مرسوم. كان أبهق وبدينا، وهاتان خاصيّتان متنافرتان في العادة، ولكنّهما التقتا في هذه الحال لمنح الملازم أوّل شكلا شبيها بدمية من ثلج.

- وأنت اسمك هو...

ذكر *خوان صينرا* اسمه، وتحاشى الإشارة إلى رتبته، وأوضح أنّه كان ينتمي إلى هيئة الممرّضين بمصلحة المسجونين. لم يقل كلّ الحقيقة، لكنّه ما كان يكذب: «سنة 1936 كنت أدرس بالمعهد في السّنة الثّالثة بكليّة الطّبّ، لذا أسندوا إليّ هذه المصلحة. سيّدي العقيد».

غير أنّ العقيد لم يكن يعيره اهتماما كبيرا لأنّه كان يبحث في اللاّئحة الّتي تحت عينيه عن اسم المتّهم. لم يكن يقصد ربح الوقت لأنّه ليس في حاجة إلى ذلك، وإنّما كان يريد أن يعرف شيئا إضافيّا عن هذا المهزوم الّذي كان سيحكم عليه بالإعدام وهو الّذي سبق له

أن تعرّف على ابنه. *خوان صينرا ساما*، ماسوني، أشرف على السّجن الشعبيّ، شيوعيّ، أعزب، ومجرم حرب. وُلد بـ *ميرافلوريس دي لا سييرا بمدريد سنة* 1906. ابن *ريكاردو صينرا*، ماسونيّ، و*سيرفاندا ساما*، متوفّاة.

- وتحدّثت إليه؟

- نعم، في مناسبات عديدة كانت آخرها اليوم الّذي أعدم فيه.

ألحّ العقيد برغم توتره: سيّدي العقيد.

- في مناسبات عديدة سيّدي العقيد.

اتّضحت، عندئذ، أفكار *إيمار* المضطربة مشعّة وواخزة مثل قطع فخّار مهشّم. كانت زوجته *فيوليتا* في كلّ صباح تكرّر على مسمعه: «تذكّر *ميغيل* الصغير» وهي تساعده في لباس حذائه والرّداء الباهت اللّون فوق كتفيها المرتخيتين. ولمّا كان مساعده ينقله بالدّرّاجة النّارية ذات المقعدين إلى «محكمة مواجهة الماسونيّة والشّيوعيّة» الّتي يرأسها، كان يفكّر في *ميغيل* الصّغير. كيف له أن ينسى *ميغيل* الصّغير؟ البطل الّذي كان ينتمي إلى سلالته ومات حتّى يُثأَر له.

كانت عادة تقصير إجراءات المحاكمة تحول دون توقّفه عند بعض الأمور الدّقيقة، ذلك أنّ العدالة العسكريّة تجد لنفسها حلاّ دون ألوان، وربّما لذلك بدت عليه علامات الخجل عندما أخبر السّجين بأنّ *ميغيل إيمار* كان ابنه.

- وعمّ تحدّث؟

- عنكم سيّدي العقيد.

«عن جنابكم سيّدي العقيد» (صحّح العسكريّ المرتخي مغتاظا ليحسم في كونه كان قاضيا قبل أن يكون أبًا).

فكرّر *صينرا* بوداعة:

- عن جنابكم سيّدي العقيد.

توقّف الزّمن لحظات، وظلّ أعضاء المحكمة الثلّاثة دون حراك، أسرى شرارة صمت وسكينة لم يشوّش عليها سوى ارتعاشة خفيفة لذقن *إيمار*. كانت تفّاحة آدم تعلو وتنزل كلّما احتاج *خوان* إلى ريق يخفّف به جفاف فمه. وقد كانت الشّيء الوحيد الّذي يتحرّك في تلك القاعة.

- وعن الوطن، هل تحدّث؟ هل تحدّث عن إسبانيا؟

سأل ليخفي التّوتّر الّذي كان يصعد من حنجرته، ويجعل ذاك الصّوت السّلطويّ رقيقا بفعل الحشرجات الّتي تسبق الموت.

شعر *صينرا* بالخوف حينما أدرج بعض الحقيقة في إجاباته، كأنّ مثل هذا التّقابل يمكن أن يشي به، لكنّه أكّد أنّه لم يتحدّث عن إسبانيا. واستعاد الزّمن مسيره: عاد السّكرتير الأبهق إلى رسم الأعلام، ونظر أعضاء المحكمة بعضهم إلى بعض بتواطؤ متّكئين على سندات كراسيهم مانحين أنفسَهم بعض لحظات للتّفكير. كانوا قد استجوبوا وحكموا بالموت على مئات من أعداء الوطن الّذين سئلوا جميعا في لحظة من اللّحظات إن كانوا قد تعرّفوا على *ميغيل إيمار*. وكانت الإجابة دومًا نفسها. والآن، وبشكل فجئيّ، لا يعرفون كيف عليهم أن يتعاملوا مع إجابة *خوان صينرا*.

قاطعه الفارس *ريوبو*، الّذي استحقّ عدّة أوسمة رفيعة، قائلا: «اسمع أنت، أيّها الشّيوعيّ الحقير، هل تريد تقديم تفسيرات أم نرسلك حالاً إلى مقبرة *ألمودينا*؟». وانتهى بتوجيه نظرة خنوع نحو العقيد بحثا عن تزكية تلقّاها بشكل ضمنيّ في صمت سلطويّ مرتبك.

لم يعد السّكرتير المعتدّ بنفسه يرسم أعلاما لكنّه ظلّ ينظر إلى الأوراق الّتي كان يضعها على اللّوح المائل لمكتبه. وكان *خوان صينرا* هو الآخر في حاجة إلى إعادة بناء ذكرى دون ذاكرة، فلا الضّعف ولا الخوف تمكّنا من جعله ينسى القصّة الحقيقيّة لـ *ميغيل إيدار*.

كانت صورة الجنرال *فرانكو* بقبّعة عسكريّة وهو يبتسم بوحشيّة معلّقةً على الجدار الموجود في عمق القاعة إلى جانب صليب من خشب. وتلك القاعة الفارغة الّتي يبدو أنّها كانت في الأصل قسما بمدرسة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار وجود السبّورة الضّخمة الّتي تغطّي الحائط كلّه في الوسط، تمكّن من سماع حركيّة وضجيج وأصداء غير متوقّفة لصفق الأبواب ولأوامر صارمة وخطوات مسرعة. وفي مقابل ذلك كان الصّمت يسود في الدّاخل. وظلّ الجنود الثّلاثة المكلّفون بالحراسة كتماثيل في قاع القسم، لا تماثيل حربية، بل تجمّدوا بفعل التّعب، دون أن يكون لوجودهم أيّ بعد ملحمي.

تذكّر *خوان* عدّة أشياء دفعة واحدة، وأحسّ بخوف لم يجد، لفرط قوّته، قدرةً على أن يظلّ منتصب القامة. أسند يده على طاولة السّكرتير الّذي كان على يمينه، محاولا ألاّ يستسلم للدّوار، ولكنّ دفعةً من يد راسم الأعلام جعلته يفقد توازنه ويسقط على جنبه فوق

الدّفتر. تلقّى ضربة أخرى في الظهر هذه المرّة في الوقت الّذي كان الأبهق يصرخ فيه: أنت. قف يا ابن العاهرة.

كان بامكانه أن يستجيب بسرعة لكنّه استرجع توازنه بصعوبة مؤلمة. «*حاضر سيّدي*». بدا له أن يقول. ترك نفسه يسقط بنعومة جفون عين شارب الأثير، وظلّ ممدّدا على الأرض مطويّا على نفسه مثل نبتة الخيزران.

كان البرد قاسيا.

لقد ترك الجوع والألم والخوف ووضع المهزوم *خوان صينرا* في حالة إغماء جزئيّ تخترقها الحركات لا الكلمات. جرّه رجلان من رجليه نحو مكان رطب ومظلم حيث يوجد أشخاص آخرون لا يتحرّكون. انغلق الباب محدثا ضجيجا. وقبل أن يفقد الوعيَ بشكل تامّ، مرّر أحدهم ذراعا عبر ظهره وسأله: *خوان*، ما الّذي فعلوه بك؟ أحسّ بنفسه محميّا حين سمع من يناديه باسمه وترك اللاّوعي يلفّه.

حين نقلوه ليلا إلى السّجن صحبة قافلة من المعتقلين، لم يعرف لماذا تمّ إرسال الجميع إلى الدّهليز الرّابع في حين أرسل هو إلى الدّهليز الثّاني. كانت للسّجن تراتبيّة مكرّس بشكل جيّد: في الدّهليز الثّاني كان الّذين سيحكم عليهم بالإعدام ينتظرون، وفي الدّهليز الرّابع كان الّذين تمّ الحكم عليهم يعُدّون الدّقائق.

وضمن ما يقارب ثلاثمائة رجل مكدّسين بالممرّ الّذي تمّ تحويله إلى زنزانة جماعيّة، أحاط به أكثر من النّصف عندما دخل، وبادروه بأسئلة تسعى إلى تفسير ما لا يفسّر: هل أطلقوا سراحك؟ ما الّذي

جرى لك؟ كيف تمكّنت من الحصول على حرّيتك؟ ما الّذي فعلوه بك...؟ كان من المفروض أن يكون هنالك سبب بالغ الوجاهة يسمح بالعودة إلى الدّهليز الثاني.

- لا أعرف، فقدت وعيي وأحضروني هنا مرّة ثانية.

- هل عذّبوك؟

- لا، وإنّما السّبب -في ما أظنّ- هو الخوف.

لو كان لديه نفس كاف، لحاول تفسير ما حدث، لكنّه لم يتغلّب على الخجل والتزم الصّمت. وإنّ في مواجهة أمر لا تفسير له، قد تكون المجازفة بتقديم سبب معقول مرادفًا للكذب، لأنّ الّذين يحتاجون إلى تدبير الحقائق من عادتهم أن يسمّوا الغموض كذبا. لهذا التزم الصّمت حتّى يتمكّن *إدوارد لوبث* من ترتيب الوقائع دون حاجة إلى فهمها.

كان *إدوارد لوبث* عضوا بالمكتب السّياسيّ للحزب الشّيوعيّ، وجعله عمله منسّقا للثورة بمدريد يحظى بشهرة لا بأس بها خلال الأشهر الأخيرة من الحرب. اعتقل في الجبهة الجنوبيّة ولم يكن ينتابه أدنى شكّ في ما يتعلّق بالمصير الّذي ينتظره. ورغم ذلك ، كان يحاول بكلّ شجاعة أن ينظّم حياة السّجناء ويوزّع المهامّ لمساندة أكثرهم يأسًا، ويقدّم تفسيرا سياسيّا لآلامهم، ولذلك كان يحرص على أن يسود انضباط معيّن خلال النّقاشات الجماعيّة الّتي كان هو نفسه يشجّعها، ويطلب من الحاصلين على تكوين جيّد أن يقدّموا عروضا حول مواضيع يمكن أن تثير اهتمام السّجناء، وللتّخفيف من حدّة يأسهم كان يردّد فكرة أنّهم كانوا هناك لدفاعهم عن شيء عادل. لا

أحد كان يحسّ بالعزاء عن ذلك، لكنّهم كانوا جميعا ممتنّين لوجود شخص يطمح إلى أن تظلّ تلك الأرواح حيّة.

وبما أنّ *إدواردو* اعتبر إجاباته مقبولة فإنّ أولئك الرّجال الشّاحبون النّحيلون المشلولون بفعل البرد شعروا هم أيضا أنّهم أشبعوا فضولهم. يكاد الخوف يفسّر كلّ شيء.

ذهب *خوان صينرا* ليقبع إلى جوار رفاقه محتفظا بصحفة الألومونيوم على صدره. كانت إشارةً إلى أنّه مازال سيأكل مرّة أخرى، وهذا أمر أشبه بأن يكون المرء حيّا. ألم الضّربة الّتي وجهها له الأبهق تنشر ما لا نهاية له من الآلام. وكانت الذّاكرة، بالإضافة إلى ذلك، تضغط عليه بأحزان أخرى بالغة العقم مثل الحنين.

سبق أن كتب إلى أخيه يودّعه ولم يوجّه إليه أيّ تحيّة، وقد ندم على ذلك. كانت لديه عدّة أشياء يودّ قولها له، لكنّه اكتفى، مع ذلك، بالإشارة إلى ذكريات مشتركة، كأنّ الذّاكرة هي مصدر التّواطؤ الوحيد. والآن، بعد أن مثل أمام هذه المحكمة الممسوخة، وقد اقترب من الجحيم، عرف أنّه أخطأ إذ أغفل الحديث عن العواطف.

اشتاق إلى أخيه المراهق الّذي كان بعيدا عن كلّ هذا، وقد أبدى استعدادا لتأمّل كلّ هذه الفظاعات الّتي لم يكن مؤهّلا بعدُ لإدماجها في حياته.

أصبح الصّمت مضاعفا، وكلّ الأحاديث ذابت في ظلام مملوء بأصداء بعيدة... قبل حلول الفجر، لن تكون هنالك حياة، والحياة كانت تبدأ حينما تتمّ المناداة على الموت. كان السّجناء يعرفون أنّه عند

السّاعة الخامسة صباحا -وانطلاقا من السّاحة- سينادى على مجموعة من الأسماء والألقاب، وسيصعد المنادى عليهم على متن شاحنات للذّهاب إلى مقبرة *لاألمودينا* ولن يعودوا أبدا. لكنّ هذه الأسماء تخصّ الموجودين بالدّهليز الرّابع. أما بالنسبة إليهم -أصحاب الدّهليز الثّاني- فقد كان هنالك إجراء ينقصهم: المثول أمام العقيد *إيبار* ليتلقّوا الحكم الّذي لا رجعة فيه، وهو ما يعني أنّه مازال هنالك وقت، والوقت يمرّ فقط بالنّسبة إلى الأحياء.

عرفوا عن طريق الفارس *كابيلان* أنْ ليس كلّ المحكوم عليهم بالإعدام تمّ رميهم بالرّصاص؛ فالتّدخّلات العائليّة والتّوصيات الخاصّة والقرارات الاعتباطية بالعفو جعلت عددَ مَن أعدموا يتناقص مع مرّ الشهور. وقد شاع أنّ عديدين منهم ذهبوا من الدّهليز الرّابع إلى سجن *ضويسوا* أو *أوكانيا* أو *بورغوس*. لذا كانوا يفكّرون في أنّ الزّمن سيمرّ بمنتهى البطء والعنف اللّذين يروقان له، غير أنّه سيكون هنالك أسبوع إضافيّ، يوم إضافيّ، بل حتّى ساعة إضافيّة. وهذا هو بالتّأكيد ما جعلهم جميعا يحاولون عدم إثارة الانتباه، وأن يمتزجوا مع لون جدران الزّنزانة الجماعيّة الرّماديّ المتّسخ.

في الأشهر الأولى، والبرد لم يسكن بعدُ عظامَهم، كان هنالك دومًا أحدٌ يعتلي قضبانَ النّافذة المطلّة على السّاحة ويصرخ: «*تعيش الجمهوريّة*» حينما كان أصحاب الدّهليز الرّابع يمتطون الشّاحنات في الفجر. «*وداعا أيّها الرّفيق، وداعا أيّها الصّديق. سننتقم لكم*». غير أنّ هذه الحركات بدأت تخفت بشكل تدريجيّ حتّى أصبحت غائمة وصار الفجر أكثر قتامةً.

وفي اليوم التّالي، لم يُدعَ *خوان صينرا* إلى المحكمة. ذهب آخرون ولم يعد أحد. تناول *خوان* الحساء الدّافئ مرّتين إضافيّتين وساعد شابّا لم تنبت لحيتُه بعدُ على إزالة القمل بعد أن امتلأ رأسه بالبثور من كثرة الحكّ.

قال له: إذا واصلت بهذه الطّريقة ستصبح أصلع.

(لفّ الشّاب حول رأسه شيئا لم يتبيّن *خوان صينرا* ما هو، لكنّه ابتسم كأنّ الأمر أدخل عليه سرورا).

قال له أحدهم إنّ العريف *سانشيز* يملك مُشطا وشرع يمشط بعناية بيض القمل من شعر الشّاب الّذي أراه صورة خطيبته اعترافا له بالجميل.

- إنّها مثيرة. أليس كذلك؟ هي من *صيكوفيا*، ولكنّها أتت لتقدّم خدماتها بمدريد وها أنت ترى... وقام بحركة بذيئة وحنونة في الوقت نفسه.

لم يتمكّنا من مواصلة الحديث لأنّ أحدهم طلب حضوره قرب الحاجز الموجود بالمدخل. أرجع له عريف أوّل، هرم بفعل الخوف وسقطت أسنانه بفعل الجوع، ظرفًا مفتوحا بعنوان مكتوب بالقلم. تلك كانت الرّسالة الّتي كتبها *خوان* إلى أخيه قبل أن يمثل أمام العقيد *إيبار*. الآن يرجعونها إليه مفتوحة وعليها تشطيبات.

- هذه الرّسالة لا يمكن إرسالها، وستكون محظوظا لو تمكّنت من كتابة رسالة أخرى.

- من قال ذلك؟

- الفارس *كابلان*.

وما عدا «أخي العزيز *لويس*» و«تذكّرني دائما، أخوك *خوان*» تمّ شطب كلّ الجمل بقوّة، بما في ذلك تلك الّتي تتحدّث عن البرد والصّحة السّقيمة ووداعة أمّه المتوفّاة وأشجار الحور الأسود بمنتزهات *ميرافلوريس*... لم يكن هنالك حيّز لما هو إنسانيّ. ما كانوا يريدون له أن يودع أحدا.

عاد برفقة الشّابّ ذي بيضات القمل، يعلّق بفكاهة على خطّه، وتابع المهمّة الّتي كانت قد توقّفت.

تأمّل *خوان* يديه العاجزتين عن اقتحام ذلك الشّعر المملوء بالقمل. الآن قضت تشقّقات البرد على كل مهارة. هم الآن ماهرون فقط في تسريح الشّعر. ومع ذلك حاول أن يكون حنونا ويده تلمس رأس الشّابّ الّذي لم تنبت لحيته، ولم يقم بأيّ شيء لتجنّب تلك الحركة. وتحدّثا.

كان يدعى *أوخينيو باث*. عمره ستّة عشر سنة، من مواليد *برونيطي*. كان خاله مالك الحانة الوحيدة بالقرية حيث كانت تعمل أمّه وتتلقّى معاملةً مهينة على الرّغم من عامل القرابة، وهي الّتي تفانت في التّفرّغ لمهامّ المطبخ والتّنظيف بالمحلّ في قرية بمثل تلك الحقارة. لمّا اندلعت الحرب انتظر *أوخينيو* أن يعلن خالُه انتماءه ليلتحق بالطّرف الخصم وبهذه الطّريقة أعلن ولاءه للجمهورية.

كان له وجه طفل عاجز عن أن يكبر. كأنّ الظّلّ البئيس لذلك السّجن لم يكن له عليه أيّ تأثير. لم يكن في وجهه الّذي لفحته الشّمس

أيّ خطّ مستقيم أو أيّ خطّ ذي زاوية لأنّ الصّرامة والحزن كانا ممنوعين عنه أيضا. كان بدينا وذا قامة متوسّطة الطّول يتحدث دومًا وهو يثني شفتيه كأنّه نادم على قول ما كان يقوله. ولكنّ الأمر لم يكن كذلك، إذ أنّ عينيه الزّرقاوين كانتا تنظران بتركيز في عين مخاطبه محوّلا أيّ تفاهة إلى حقائق بمثل قوّة اللّكمات. شيء مّا بطعم الصّداقة والحنان كان يشعّ من جمله الّتي كان يزيّنها بتعبير من اختلاقه وبعض تجديفات.

شارك في الحرب دون مُثل عليا كأنّه يلعب، وكان همّه ألاّ ينتصر الخصم، ودون أن يتأمّل الأسباب الّتي جعلته يتّخذ الموقف الّذي اتّخذه. وطبّق القواعد حتّى النّهاية، كما الشّأن في كلّ لعبة، مطلِقا الرّصاص -باعتباره مقاوما- عندما دخل عسكر *فرانكو* مدريد آخذين معهم من سطوح البنايات كلّ ما وجدوه في طريقهم.كان الخناق يضيق على جيش الخصوم بخطط حاصرت المنتصرين حتّى اليوم الثّالث من النّصر. وفي الأخير قبضوا عليه، ولم يكن يحارب بل كان قد خرق وقف إطلاق النّار الّذي فرضته السّلطات الجديدة عندما كان ذاهبا لرؤية خطيبته بباب إحدى العمارات بشارع *سلمنكا* المظلم الصّامت حيث كانا قد أقاما سرير زواجهما.

ومع ذلك، فقد كان راضيا عن نفسه إذ استمتع بالتّحكم -خلال ثلاثة أيّام- في وضع قواعد اللّعبة بتحديد من كان طيّبا ومن كان سيئا، فحاكم وأطلق سراح البعض، وحكم وأعدم متّبعا نظاما كان يعتقد أنّ آخرين اخترعوه.

الآن، وهو في السّجن، عرف أنّ كلّ ما وقع كان اسمه الحرب،

وأنّه انهزم على الرّغم من إتقانه التّسلل من أفاريز المنازل وخفّته لحظة القفز من سطح إلى آخر وانتشائه كلّما أطلق رصاصا على منافس له. وما كان يحزّ في نفسه أكثر هو أنّ خطيبته المنتمية إلى *صيكوفيا* كانت حاملا. *«بما أنّها ساذجة، ربّما ستظنّ أنّي على علاقة بامرأة أخرى...»* (وقد أنهى حديثه بشجن).

عرف *خوان* أنّه كان سيحبّه لو كان الظّرف مختلفا. الآن كان يكتفي بأن يمنحه رفقته الشّبيهة بشيء ناعم وأساسيّ إزاء لُزوجة الحزن الجماعيّ. لم يكن *أوخينيو* يعتبر الخصوم أعداء. كان يعتقد أنّه سينتصر في فرصة قادمة، وإن كانت الهزيمة من نصيبه هذه المرّة. كان الأمر كأنّه لعبة حظّ، بلا انتقام ولا مُدانين. «لا أتبرّم من الخسارة مثل كلّ هؤلاء».

في اليوم الموالي، كان *خوان* هو الأوّل على اللاّئحة. كان من العسير الحصول على ورق وقلم، حتّى لم يتمكن من توديع أخيه. لقد بدا له الموت هذه المرّة متسرّعا.

تشكّل صفّ ينزل نحو السّاحة -صحبة الّذين تمّت المناداة عليهم- حيث تقف شاحنة صغيرة لتنقلهم إلى محكمة العقيد *إيبار*. وأمّا الّذين مرّوا قبله فقد عادوا كلّهم محكومين بالإعدام. ولمّا جاء دوره، ذهب *خوان صينرا* عن طيب خاطر إلى موعده مع المحكمة. كيف يتمّ قتل ميّت؟ هذه الفكرة أعطته مظهرا يشي بالأنفة وإن لم يشعر من قبل بأنّه على هذه الدرجة من الانهزام.

عند دخوله إلى المحكمة، تبيّن له أنّ كلّ شيء كان كالمرّة السّابقة:

العقيد *إيبار* وعلى جانبيه القبطان *مارتينيس* والفارس *ريوبو* على المنصّة، فيما كان العسكريّ الأبهق قبالتهم جالسا على كرسيّ مدرسيّ ومنهمكا في رسم ظلال للأعلام. بيد أنّ امرأة متقدّمة في السّنّ جلست قرب الباب المؤدّي إلى القسم على كرسيّ متهالك، مرتدية معطفا من فرو *أستركان بال*، وبحقيبة يد في حجرها وحركات صارمة، وقد تابعته بنظراتها. قدّم انتماءه بأمر من السّكرتير الأبهق وظلّ واقفا قبالة المنصّة متجنّبا أيّ شكل من أشكال التّصلب الّذي قد يؤخذ على أنّه وضعيّة وقوف عسكري. أوقفت حركة من العقيد قراءةَ لائحة التّهم الرّوتينيةَ الّتي يتابَع بسببها. ثم ساد صمت لفترة: هكذا إذن، فأنت تعرّفت على *ميغيل إيبار* في سجن *بورليي*...

تظاهر العقيد بأنّه كان يبحث عن أوراق مّا بينما كان ينتظر الإجابة الّتي تأخّرت في الوصول.

- ولماذا تتذكّره بين كل هذا العدد الكبير من السّجناء؟

- لأنه كان ماهرا في القيام بالألعاب السّحريّة.

صرخ ريوبو:

- سيّدي العقيد.

- سيّدي العقيد.

غير أنّ عينَي العقيد كانتا تبحثان عن عينين أخريين في قاع القاعة، وخلال بضع لحظات اكتسى مظهر العسكريّ حالة من الضّعف تشبه حالة آنية مهملة. قام بحركة تواطؤ تجاه الفراغ، ومن جديد، وجّه نظرته العكرة صوب *خوان صينرا*.

- ولماذا كان معتقلا؟

عرف *خوان* أنّ السّاعة قد حانت، وأنّ عليه أن يجيب عن هذا السّؤال. أحسّ بوهن كبير، وكان التّفكير مع تجاوز الألم يكلّفه الكثير وهو يعلم أنّ *ميغيل إيبار* اعتقل وحكم عليه لأسباب مدنيّة لا علاقة لها على الإطلاق بالحرب.

ترويج أدوية فاسدة أدّت إلى وفاة مريض، سرقات لموادّ غذائية عبر التسلّل إلى مستودعات عسكريّة، اتّجار غير مشروع في البنزين والمحروقات، وجرائم أخرى شجّعت عليها فوضى الحرب في مدينة مثل مدريد حيث انصبّ الاهتمام فقط على ما يجري في الجهة الأخرى من تحصيناتها.

كان الشّباب يموتون في المتاريس، والقذائف تصيب المناطق الهامشّية، لذا كان الخوف من الهزيمة وضرورة التّستر عليه يمثّلان الجزء القليل المتبقّي ممّا كان يعرف باسم السّلطة.

وفي الأخير اقترف جريمة قتل.

أجاب *خوان* وهو يعرف أنّه يكذب:

- لانتمائه إلى الفرقة الخامسة سيّدي العقيد.

- لأنّه بطل يا ابن العاهرة، لأنّه بطل.

صرخ *ريوبو* ذو الجسم المتشحّم باحثا عن مباركة من رئيس المحكمة. فوجئ *خوان* بالطّريقة الّتي كانت تتغيّر بها نظرة الملازم أوّل. عندما كان يوجّه نحوه صرخاته، كانت عيناه تحمرّان، وبعد

بضع ثوان -وهو ينظر بشكل جانبيّ إلى رئيس المحكمة منتظرا تزكيته- كان الغضب يتحوّل إلى خضوع ترشَح منه الدّهون. غير أنّ حركةً خفيفة، هذه المرّة، تكاد تكون حركة أسقف، بيد مغطّاة بحاشية الكمّ، قاطعت الكلام الفارغ الحارّ. وبالإضافة إلى ذلك كانت عينا العقيد تبحثان مرّة أخرى في قاع القاعة، وتأخّر وقتا لا بأس به ليتخلّص من سطوتها. كانت سدلتا أنف العقيد تنفتحان وتنغلقان بيسر عند التّنفّس، وأمكن لـ *خوان* أن يلاحظ كيف أنّ الشّعيرات الّتي تطلّ من الثّقبين تتبلّلان بلزوجة لامعة وثخينة. هل كان يبكي؟

وفي نهاية الأمر سأل العقيد وهو يستعيد خيط الحكاية: ولهذا كان عليكم قتله؟

قال *خوان صينرا*، كأنّه يحادث الخواء،: لقد كان موظّفا بالقطاع الصّحّي في السّجون. لذا فهو لم يقبض على *ميغيل* ولا حاكمه، ولم يحكم عليه بالإعدام. ثمّ أضاف: لقد تحدّثت إليه عدّة مرات سيّدي العقيد.

لم يكن الأمر صحيحا. تذكّر جيدا عمّن يتحدّث لأنّه كان من ضمن الحالات الّتي لم يتمكّن رعب الحرب نفسه من طيّها، فـ*ميغيل* هذا قد قتل راعيا من قرية *فوينكارال* ليسرق له بعض الخراف ويبيعها بعد أن تلاعب بأسعارها، غير أنّ ابن ذاك الرّاعي -وكان طفلا صغيرا- سمّر له مذراة في المعدة حتّى كاد يموت. اعتنى به *خوانصينرا* وناوله أدوية بعد أن خضع لعمليّة جراحيّة تمّت بالمهارة الّتي توفّرها الحرب للحفاظ على الجنود. وفي فترة النّقاهة، أعلن

ميغيل إيبار استعداده لتقديم معلومات مقابل إخلاء سبيله، وسرد ما كان يعرف عن منظّمات المنحرفين بما فيها تلك الّتي تزعّمها، وحكى شيئا استعمل للضّغط على أعضاء من الفرقة الخامسة كانوا يقومون بعمليّات داخل مدريد المحاصرة. وعليى الرّغم من كلّ ذلك أعدموه قتلا بالرّصاص.

وسألت من قاع القاعة السّيدة الّتي ترتدي معطف فرو *أستركان بال*:

- وعمّ كنتما تتحدّثان؟

التفت *خوان* ورآها واقفة، تتقدّم ببطء وهي تنظر بتركيز إلى عينيه. كانت تحتفظ بحقيبة اليد في حضنها كأنّها شيء ضعيف يتعيّن حمايته.

قال العقيد متوسّلا:

- *فيوليتا*، بحقّ الإله.

غير أنّها تشبّثت بسؤالها:

- وعمّ تحدّثتما؟

توجه *خوان صينرا* نحو رئيس المحكمة مستأذنا أن يجيب، وانتظر أن يتلقّى حركة تسمح له بأن يقوم بذلك. فأذن له العقيد بأن يجيب. وكان *خوان* يحاكم على أساس أنه أجرم في حقّ الوطن المسكين وهو يواجه الآن ألمَ أمّ ثبت أنّ ابنها قاتل. وكان على وشك أن يتعاطف معها.

قال *خوان*:

- لا أعرف، تطرّقنا إلى مواضيع عديدة: طفولتِه، أبوَيه... أمور السّجن، وتحدّثنا أحيانا عن الحرب.

وبهذه الإشارات الملتبسة استهلّ *خوان صينرا* كذبة مطوّلة وكثيفة انبثقت من لحظة شفقة لتتحوّل إلى مرتكز حياة.

تلك المرأة ذات الملامح غير الواضحة وقد انعكس عليها ضوء النّافذة الموجودة وراءها تقبض على حقيبة يدها كأنّها تحول دون طيرانها وكانت تصوغ أسئلتها بصرامة لا تشبه على الإطلاق صرامة القضاة. هي لم تكن تريد أن تُدين أو تبرّئ، بل أن تميّز الحقيقي من المزور فحسب. وربّما كانت تريد أن تعرف. وتوالت الأسئلة من شفتيها الجامدتين الشّاحبتين المتوتّرتين، دون قلق أو اهتمام بالإجابات.

صارمةً، بشيب أتى قبل الأوان، مجرّدة من حنان الأمهات، مُلتاعة في حالة حداد، تبدو تلك المرأة تجسيدا للألم خاصة لمن يريد رسم صورة للانتقام. ومع ذلك، فقلق نظرتها ولامبالاتها بكلّ ما يشوّش على ذاكرة ابنها، واللؤم الذي كانت تبحث به عن الكذب، كل ذلك حوّلها إلى شيء أشبه ما يكون بأُمّ محطّمة.

- كان عليه أثر حرق سبّبه له زيت حارق وهو مايزال طفلا. هل عرفت أين؟

- في الفخذ اليمنى، في الجهة الدّاخليّة. كان عليّ أن أحقنه بمسكّنات بعد العمليّة، لهذا عرفت ذلك.

- أيّ عمليّة؟

استبدل *خوان* التهاب الصّفاق بمذراة ابن الرّاعي أو شيء من هذا القبيل. وأضاف أنّه لمّا وصل إلى *بورليي* كان قد تعافى وإن كان مايزال في فترة نقاهة، وعلى أمل أن يلقى التّعزيمة، بحث عن كلمة السرّ.

- كان مريضا متفهّما.

وانفلق الجبل. فتقدّمت المرأة الغامضة الّتي يرسم صورتها ضوء النّافذة الكبيرة نحو *خوان* ببطء محدّقة فيه وغير مصدّقة، وسط صمت كلّ الحاضرين، إلى أن وقفت بين المتّهم والسّكرتير الأبهق. لم تنفع أوامر العقيد إيمار الرّخوة في شيء، ولم ينفع تكراره لجملتي *«بحقّ الإله»*، و*«فيوليتا من فضلك»*، لأنّها تعوّدت على أن يتظاهر زوجها بالسّلطة، ولأنّها كانت تتحدّث عن ابنه الّذي لا خبر له عندها باستثناء احتلاله الرّتبة الثّالثة في لائحة من أعدموا بعد محاكمة سريعة. أمّا الآن فقد أتيحت لها فرصة أن تعرف، وكانت ستشفي غليلها لمعرفة التّفاصيل، لولا أنّ بكاء صادرا من الحلق -تحوّل إلى صوت غير متوقّف لا وجود له في اللّغة القشتاليّة، وإن كان يوجد في لغة الحيوانات الّتي تبكي- حال دون أن تصوغ مزيدا من الأسئلة.

لم تقترب من *خوان* ولم تمدّ نحوه ذراعيها، لكنّهما ظلاّ وحيدَين وجها لوجه، دون قضاة، ولا متحدّثين باسم المحكمة، ولا سكرتير أبهق، ولا مكلفين بالحراسة. الآن، كان يضيئها النّور الّذي يواجهها ولكنّها ظلّت، على الرّغم من ذلك، معتّمة وتمكّنت في آخر الأمر من النّطق بشيء مفهوم: *«كان ابني»*.

غادر العقيد مكانه خلف المنصّة وخطا خطوات مسرعة وغير متناسقة إلى أن وقف إلى جانب زوجته قصيرة القامة، وكانت توحي بأنّها أكبر حجما. وسعى إلى أن تكون حركة من يده صارمة وسلطويّة: *«يكفي بالنّسبة إلى هذا اليوم»*.

أمر الفارس *ريوبو* بأن يؤخذ السّجين. وأمّا الجنديّان النّحيفان اللّذان أتيا به بخشونة فقد أخذاه إلى الزّنزانة الّتي تُؤوي المحكومين بالإعدام في المحكمة الّتي يترأّسها العقيد *إيمار*، ولقد التزم الصّمت مثلهم جميعا.

الصّمت فضاء، فجوة نلجأ إليها وإن كانت لا تضمن لنا الأمان... الصّمت لا ينتهي ولا ينقطع... سمتُه الأساس هي الهشاشة، والبشرة المخاطيّة المحيطة به شفّافة تسمح بمرور كلّ النّظرات. كان على *خوان* أن يواجه نظرات رفاقه في الدّهليز حينما تمّ اقتياده من جديد، وهو تحت وقع مفاجأة كبيرة، إلى المكان الّذي يحتاج الموت فيه إلى إجراء إضافيّ.

غير أنّه -لأسباب متّصلة بتراكم العمل لدى المنتصرين- أعيد إلى الدّهليز في وقت متأخّر جدّا. وتمكّن من استعادة صحفته -أو صحفة آخر كان سيموت- ودون تناول العشاء تكوّم إلى جانب الحائط المظلم ورغب في التّخفيف من ارتباكه بأن يحلم بأيّ شيء فريد... أيّ شيء... المهمّ أن يكون شيئا فريدا: حيوانا، ماء، حجرا، أرضا، دودة، دمعة، جبانا، شجرة، بطلا... وغلبه النّوم دون أن يكون بحاجة إلى أن يفسّر لماذا كان لايزال على قيد الحياة. احترم الجميع

صمته. لا أحد سأله. تخيّل أشياء مستحيلة وروائح وأصواتا، في حين كانت تتداخل في أحلامه فضاءات وألوان. اعتبر كلّ هذه الأحاسيس شكلا من أشكال التّعوّد على عدم البقاء حيّا، وحاول أن يتخيّل اللّغة الّتي يتكلّم بها الهالكون.

الضّعف له هذه المزايا...

في اليوم التّالي استيقظ مهووسا بفكرة أن يكاتب أخاه مرّة أخرى.

كان يعرف كيف يمكن العثور على قلم وورق لكتابة رسالة أخرى إلى أخيه. حدس، من دون أن يعرف لماذا، بأنّ لديه متّسعا من الوقت، ووجد - فجأة- نقاط تشابه بين الكتابة والمداعبات، وبين الكلمات والمحبّة، وبين الذّاكرة والتّواطؤ. في سجن المهزومين ذاك، كان هناك منتصران. كانا يتعايشان مع السّجناء، لكنّهما ما كانا سيمثلان أمام المحكمة. كانا يرتديان لباس الجيش المتمرّد ويتباهيان بالسّير دائما مُسَرّحي الشّعر ببرنيطة عسكريّة وبريش زينة أحمر يسّجل، دوما، الإيقاع الحربيّ لخطواتهما. وعلى الرّغم من هزالهما، فإنّ بريقا في حركاتهما كان يميزّهما من بقيّة السّجناء. معلّم مسنّ، صديق لـــ*نيكرين*، عجز عن تحمّل الجوع وفصل الشّتاء، أطلق عليهما لقب *اسبوث ومينا*، فعلى الرّغم من أنّهما كانا شخصين اثنين فإنّ تصرّفهما كان تصرّف شخص واحد.

في الحقيقة كانا معتقلين. خطأ مّا فادح -لم يعترفا به قطّ- أتى بهما إلى ذاك الدّهليز، حيث كانا يتمتّعان ببعض سلطة على السّجناء بتواطؤ خنوع مع السّجانين.

نشأت حولها حركة بائسة لتبادل المؤونة، وبفضل وساطتها كان يتمّ الحصول على وقود جافّ للمصابيح وقلم للكتابةو كميّة من التبغ وورق للفّ السّجائر وتوزيع اعتباطيّ للخدمات كان *ايصبوث ومينا* يدبّرانه كذلك مقابل أشياء بائسة: خاتم زواج، ولاّعة، كيس ذهبيّ لحفظ الأسنان، أو أيّ شيء آخر قيمته هنا أكبر من قيمة كائن إنسانيّ.

حصل *خوان* من *اسبوث* على ثلاث ورقات ومظروف مقابل أحد جواربه وأعاره *مينا* قلما من خشب لمدّة ثلاثة أيام.

«أخي العزيز *لويس*

كتبت رسالة لأودّعك والآن أنا سعيد بأنّهم منعوني من إرسالها إليك، ربّما لأنّ لحظتي لم تحن بعد. ما دمتُ أستطيع أن أكاتبك فذلك يعني أنّني مازلت على قيد الحياة. لقد حاكموني لكنّهم لم يحكموا عليّ. فأنا محتجز في منطقة حدوديّة.

أعرف أنّه عندما سيتعذّر عليّ مكاتبتك، كلانا سيكون وحيدا على الرّغم من أنّ *ميرافلوريس* قرية صغيرة وجميع سكانّها أقرباء لنا على نحو من الأنحاء. أنا متأكّد أنّهم سيقفون إلى جانبك. ابحث عن عمل، ولكن ليس في ورشة النّجارة لأنّ رئتيك لن تتحمّلا النّثارة الّتي تتطاير في الهواء. يمكن للعمّ *لويس* أن يمنحك فرصة للعمل بمحلّ بيع المواد الغذائيّة. يؤسفني أنّني لا أستطيع التّكفّل بمصاريف دراستك. ولكن إذا تمكّنت يوما من بيع أراضي والدينا، فخصّص كلّ ما ستحصل عليه من مال لتكوين نفسك، وسوف يساعدك السّيّد *خوليو* المعلّم في تدبّر هذا الأمر».

على الرّغم من أنّه خصّص اليوم كلّه لكتابة الرّسالة، فإنّه لم يتمكّن إلاّ من صياغة فقرة واحدة. فإذا كان الزّمن في السّجن لا متناهيا، فإنّ انتظاراتٍ ورتاباتٍ قاسيةً تتخلّله، وصفوفا لا نهاية لها للحصول على وجبة من البطاطس المغلاّة أو للذّهاب إلى المرحاض أو للحصول على حساء العشاء. اصطفافات لا تنتهي لعدّ السّجناء ثلاث مرّات في اليوم، نوبات نزقة للقيام بتنظيف الدّهليز الّذي يظلّ، برغم ذلك، متسّخا دومًا، بالإضافة إلى أنّه كان عليه أن يحضر في ذاك الصّباح رفقةَ سجناء آخرين إلى العرض الّذي قدّمه *إدواردو لوبث* حول فائض القيمة ومضاعفاتها على وضع البروليتاريا العالميّة. اعتاد *خوان* أن يصف المشاركين في تلك اللّقاءات الّتي تتمّ بأصوات منخفضة ولكن بتواطؤ طائفة دينيّة بأنّهم جثث ذات اطّلاع.

تفتّق الغروب عن ظلام متعدّد وامتلأ الهواء بظلال متجمّدة. ولم يكن عند أحد وقودٌ.

استيقظ *خوان* عندما أتى الهواء البارد بصوت لائحة المحكوم عليهم بالسّاحة. لا أحد تحرّك على الرّغم من أنّهم سمعوا كلّهم تردّد الأسماء الواحد بعد الآخر دون إجابة: *لويس فاراخادو*، *أنطونيو لويث إيبان*، *خوسي مارطينيثلوبث*، ألبرتو مينكيز... كان ذلك الصّوت القويّ، على رتابته، يضيء الواقع مثل الدّويّ الّذي يُحدثه تماسّ عود ثقاب مع محكّ العلبة.

بعد توزيع شعير الجعّة الّذي كان يقوم أحيانا مقام الفطور، اقتربت مجموعة من السّجناء من *خوان* وسألوه *إدواردو* دون مقدّمات عن أسباب إعادته في كلّ مرة إلى الدّهليز الثّاني.

- لا يقرّ قرارهم على محاكمتي. يبدو أنّني شرّير.
- ألا يكون مردّ ذلك إلى أنّك تحكي أشياء لست متأكّدا منها؟

كان *خوان* ينتظر أيّ سؤال باستثناء هذا.

- لا أعرف شيئا ولا أحد يسألني. ذلك القاضي المتعصّب الّذي يجاري زوجته المجنونة. إنّها تريد أن تعرف، مهما يكن الثّمن، ما الّذي وقع لابنها.
- وما الّذي وقع؟
- أعدمناه رميا بالرّصاص. كان حقيرا. أقول لهم أقلّ ما يمكن قوله لأرى إن كانوا سيتركونني أعيش بضعة أيّام إضافيّة. هذا كلّ ما في الأمر. عندما يكتشفون أمري سأذهب أنا أيضا إلى الدّهليز الرّابع. لا تتضايق.

خلافا لسجناء ذلك الدّهليز، وقد كانوا نحيفين وهزيلين بسبب ظروف السّجن، كان *إدواردو* نحيلا منذ ولادته. كان له صدر بارز وأنف ذو مواصفات عبريّة يمنحانه هيئة مزدوجة كتلك الّتي حبت بها الطّبيعة الدبّ الّذي يتغذّى بالنّمل. وكان غامقا مثل كتاب قدّاس يقدر على المرور دون أن يثير الانتباه أمام حلقات النّمامين حيث كان يحاكم من يحكم ويتمّ الانتصار على المنتصرين.

اعتبر *خوان* أنّ المحادثة انتهت لأنّه يصعب عليه فهم الاشتغال الآليّ للتّراتبية المعمول بها خلال السّنوات الماضية. كيف يقدم موتى على طلب تفسيرات من موتى آخرين؟

توقّفت المحاكمات خلال يومين، وتقاسم الشّاب ذو بيض القمل

مع *خوان* ذكريات وتواطؤات. كان *أوخينيو باث* قد بدأ يعرف معنى الحياة في مستهلّ الحرب. وحتّى ذلك الوقت، كان يعيش كيفما اتّفق بـ*برونيطي* يدرس كدس الحَبّ في فصل الصّيف ويحرث في موسم البرد ويزرع القرطمان قبل قدوم الأمطار. ولم يذهب قطّ إلى المدرسة، ولكن كان يكفي أن ينظر إلى الدّجاج ليميز الدّجاجات الّتي تبيض من تلك الّتي تصلح لإعداد حساء فحسب، ويعرف أيّة نعجة كانت ستلد ولادة صعبة، وأيّ سلوقيّ يصلح لصيد الأرانب الصّغيرة دون قتلها. ولم تكن أمّه متزوّجة، وقد حملت من صاحب الفندق الّذي كان يتباهى بأنّه لم يترك من *فياسيوسا* إلى *نافالكارنيرو* عذراء واحدة. لم يقبل قطّ أن يناديه *أوخينيو* أبي.

واستجابة لحديثه، حاول *خوان* أن يخبره عن أخيه وعن حياته بـ*ميرافلوريس*، غير أنّه لمّا أراد أن يتذكّر، لم يجد سوى عواصف من الثّلج، لأنّ كلّ ما تبقّى كان بمثابة مرتع للنّسيان.

إذا كان المثول أمام العقيد *إيبار* قد تأجّل لسبب من الأسباب فإنّ شعورا من البهجة الخفيفة خيّم على الدّهليز الثّاني. وإذا أضيف إلى ذلك -كما حدث في اليوم الثّاني- أنّه لم تكن هنالك لوائح تخصّ الّذين سيركبون شاحنة الموت، فقد برز الأمل من شقوق الخوف، وتحوّل إلى بلسم قادر على التّخفيف من وقع البرد والجوع. لذا، فإنّهم ما كادوا ينتبهون إلى ذلك فظهرت على الوجوه ابتسامات خفيفة وحركات صامتة توحي بالاطمئنان شرعت على التّدريج في تهدئة كلّ دوار.

كان يوما عظيما. تبادل *أوخينيو باث* و*خوان* من جديد بعض التّفاصيل الحميمة. اعترف له الشّابّ ذو بيض القمل بأنّه كان قلقا

لأنّ عضوه كان من قبلُ دائمَ التّوثّب مثل عنق «مغنٍّ شعبيّ»، والآن هو بالكاد ينتصب. فكّر خوان: «ذلك أنّك ميّت بالفعل»، غير أنّه واساه بأن قال له: لقد أثّر فيك غياب من تحبّ، هذا هو تفسير ما يحدث لك.

في الصّباح الموالي، كان *خوان* يحاول ألاّ يفكر في أيّ شيء وألاّ يرى أيّ شيء وألاّ يشمّ أيّ شيء خلال وقوفه بالصّف قبالة مراحيض الدّهليز الثّاني. كان مكانا نتنا، مغطّى بالماء ومهينا. وفَوق أرضيّات مستطيلة بها صفّ من الثّقوب، دون جدران، دون أبواب، ولا تحفّظ، كان ينتظر صفّا طويلا من الرّجال الّذين كانوا يخفون خجلهم بتعليقات شبقيّة واستعجال ساخر.

سأله عريف كان يحمل لائحة في يده: أنت ممرّض، أليس كذلك؟ تعال معي.

لم تنفعه في شيء إشارتُه إلى سبب وقوفه في الصّفّ، إذ قاده حتّى الجزء الخارجيّ من الشّباك الحديديّ وهو يقول له: *«اقض حاجتك فوق ثيابك»*. ومن هناك عبر غرفة الحراسة، مرّا إلى زنزانة محروسة بشكل استثنائيّ حيث أمر العريف بفتح الباب ودفع *خوان* إلى الدّاخل.

– هذا الشّخص يجب أن يظلّ حيّا حتّى السّادسة صباحا من يوم غد. وفي حال موته، سنعدمك أنت. سوف ترى.

وأغلق الباب بقوّة. تمكّن الظلام من عيني *خوان صينرا* الّذي حدس، عند دخوله، بوجود جسم أعزل فوق سرير بلا فراش. سأله *خوان* دون أن يتجرّأ على لمسه:

- من أنت؟

- اسمي *كروث ساليدو*. وأنت؟

- *خوان صينرا*.

كان *كروث ساليدو* رئيسَ تحرير جريدة «الاشتراكيّ» في المرحلة الأخيرة من الحرب، وتمكّن من الوصول إلى فرنسا في آخر لحظة. ورغبة منه في الوصول إلى وهران استقلّ سفينة شحن كانت تتوقّف بجنوة، وهناك قبضت عليه مجموعة من «القمصان السّود». وبعد أشهر أعادوه إلى إسبانيا. ولمّا سئل عن التّنظيمات الموجودة بالمنفى وعن خطط *ليسطر* للعودة إلى إسبانيا مع فرقة من الجيش وعن مئات الأشياء الّتي لم يعد يذكر بدقّة ما قال في خصوصها، حوكم وحكم عليه بالإعدام. بين كلّ هذه الاحتفالات بالموت، وكلّ هذا التّعب، فرّت الحياة من بين يديه وهي تتدفّق، وكان منشغلا برئتين أنهكهما السّلّ. لم يتمكّن قطّ من معرفة الجرم الّذي ارتكبه. وكلّ ما يعرفه هو أنّهم كانوا حريصين على أن يصل حيّا قبالة كتيبة الإعدام.

قال متوسّلا:

- الكونت *مايالدي* يريد إعدامي بشكل علنيّ، قُم بما تقدر عليه لأموت قبل ذلك.

- لا يمكنك أن تطلب منّي ذلك مهما كنت راغبا فيه.

أبدى *كروث ساليدو* موافقته. ما كان بالإمكان أن يطلب منه ذلك. وبما أنّه كان يختنق وهو يتكلّم، قرّر أن يتكلّم حتّى الإنهاك، وأخذ يمنح ذاكرته صوتا، متحسّرا على *بيصطيرو* الّذي كان يحتضر

بسجن *لاكارمونا* وعلى *أثانيا*، يا له من رجل عظيم *أثانيا* هذا. لقد أخرسوه إلى الأبد بمكان مّا مفقود ومنسيّ بفرنسا الخاضعة الآن لمخطّطات هتلر، آه *ماتشادو*، حبيبنا *ماتشادو*...

- نحن شعب ملعون. ألا تظنّ ذلك؟

- لا. أظنّ أنّنا لسنا شعبا ملعونا لأنّ الإقرار بذلك يعني إلقاء الذّنب على آخرين.

وبدأ رئيس التّحرير -بين لهاث ولحظات صمت وحشرجات- يقدّم أخبار أصدقائه الرّجال الّذين دافع عنهم بأعمدة جريدته، ولكن بتلك الأنفة المهنية الّتي كانت تمنعه من أن يتحدّث عن نفسه. لقد أصابه التّعب في قصّة مدمّرة أبتْ أن تنتهي كنَفَسه الّذي لم يستطع أن يخمد. كان بردانا لكنّه لم يقبل أن يدفّئه *خوان* بجسده. كان ظهره يؤلمه ولم يوافق على أن يغيّر له شكل تمدّده. كانت الذّاكرة تخنقه وكان يريد أن يتذكّر مهما كان الثّمن. أصبح صوته في الفجر مشكّلا من كلمات ممتزجة بالموت. وواصل حديثه دون توقفات إلاّ ما كان منها ضروريّا لكي يستعيد بشكل تدريجيّ نفسَه المتناقص الشّبيه إلى حدّ كبير بهواء متبخّر.

مات وهو يحاول أن يتذكّر أمرا غير واضح.

عندما فتح باب الزّنزانة وعثر على *كروث صاليدوميتا*، قرّر الرقيب رميه بالرّصاص، وضرب العريف *خوان صينرا* ثلاث ضربات بقندق البندقيّة، ثمّ أعادوه إلى الدّهليز الثّانيّ.

أخبر *إدوارد ولوبث* بما حدث، وتظاهر بألم غير محتمل ليبرّر

البكاء المصطنع الّذي انتابه. في ذلك الدّهليز، كان من المسموح به أن تعوي من الضّربات المتلقّاة، ولكن ما كان من المقبول أن يبكي المرء حزنا.

وبما أنّه حدس بأنّ ذلك سيكون مصدر مواساة، بحث عن ركن قصيّ ليواصل كتابة رسالته.

سأل الشّابّ ذو بيض القمل:

- لمن تكتب؟ لأخيك؟

- نحو أخي، وذلك أمر مغاير.

- تتحدّث بطريقة غريبة. لا أستغرب أنّهم يريدون رميك بالرّصاص.

«مازلت على قيد الحياة. مرّت عدّة أيّام ولكن لا توجد هنا إلاّ الصّعوبات. ما بين القلم والورق وغفوتي الدّائمة تمرّ السّاعات كأنّني لا أجرؤ على استثمارها لأنّي أعرف أنّ هذا الوقت ليس ملكا لي.

أحلم باستمرار دون أن أعرف أكنت نائما أم أتخيّل، عالم يكاد يكون فارغا حيث يتكلّم الجميع لغة غريبة لا أفهمها، وإن كنت لا أشعر بأنّي وافد جديد. حين أتعلّمها، سأحدّثك عن اللّغة المستعملة في أحلامي. لون الهواء هو مثل لون الأماسي في صيف ميرافلوريس، على الرّغم من أنّه لا توجد جبال والمشهد يضيع في أفق بالغ الصّغر لا يبدو بعيدا وإن كان لديّ انطباع أنّه يستحيل الوصول إليه...».

كانت رتابة ذلك الدّهليز تشرف على النّهاية، ومع ذلك فهي تظلّ رتيبة. وكان النّزوع التّلقائيّ الّذي يجعل المجموعات تتشكّل

ثم تتكسّر، بالغيابات الحتميّة للمحكوم عليهم، قائما كأنّ الحياة مستمرّة.

كان *إصبوث ومينا* الوحيدَين من بين السّجناء المسموح لهما بالصّعود إلى أسطح البناية. كانا يقومان بذلك كلّما وجب ضرب صوف أفرشة ضبّاط الصّفّ العاملين بالسّجن.

كانت تُعطى لكلّ واحد منهما، مرّةً في الشّهر، عصا بطول مترين، في آخرهما مثلث مستقيم، يستعملانهما لرجّ محتويات الأفرشة المبقورة إلى أن يصبح الصّوف منفوشا مثل الثّلج.

عندما كان *خوان* موجودا بالسّطح، لم يكن يعنيه الحنين إلى الأفق الّذي ترسمه البنايات، ولا النّظر إلى السّماء المفتوحة باعتبارها رمزا للماضي، ولكنّ ما كان يعنيه هو أن يجذب الحمام الجائع الّذي كان يحوم فوق مدريد بحثا عن قوت مستحيل خلال فصل الشّتاء. كان يحتاج من أجل تحقيق ذلك إلى كلّ ما يمكن أن يساعد على جذبها: فتات الخبز، قطع رقاقة كان مشاركون في القربان يحتفظون بها بعد القدّاس، صراصير، بقّ، ثمالة الهندب، وحتّى قشر بطاطس تركها أحدهم ليتمكّن من أن يستبدلها بشيء أكثر ضرورة من الطّعام.

ولمّا كان الحمام يأتي بأمل العثور على شيء يأكله، كان *أسبوث ومينا* لا يبديان حتّى يصبح الجوع أكثر قوّة من الخوف ثمّ يبدآن في نقر المصيدة الموضوعة فوق أرضية السّطح. عندئذ، وبحركة سريعة ومدروسة كان كلّ واحد منهما يوجّه ضربة لاثنتين من الحمام فتظلّ الواحدة منهما بذلك فاغرة منقارها إلى الأعلى وساقاها منكمشتين

على الصّدر كأنّهما كانتا ترغبان في أن تحتميا من السّماء المتحطّمة فوقهما.

كانا يأكلان واحدة منهما ويستعملان الأخرى للتّبادل مع الحرس، وللحصول على ما سيكون موضوع مقايضة مع السّجناء.

هكذا مكّن *أسبوث ومينا* السّجين *خوان صينرا* من مزيد من الورق مقابل حزامه ليتمكّن بذلك من مواصلة الكتابة لأخيه.

«مازلت حيّا. لا أريد أن أحسب مرور الزّمن ولا أن أحدّثك عمّا حدث حولي. ولكنّي كلّما لجأت إلى ذاكرتي، كان إخفاقي أكبر. وإنّ إمكانيّة التّفكير في كلّ هذا امتياز يحظى به من هو محكوم عليه، إنّه امتياز العبد».

في هذه اللّحظة وقعت مشاجرة بالدّهليز ودخلت فرقة من الحرّاس مهدّدة السّجناء وأجبرتهم على أن يظلّوا واقفين ووجوههم إلى الحائط وأيديهم إلى الأعلى خلال ساعتين لا متناهيتين. كان الّذي أشعل فتيل المشاجرة نقابيٌّ من منطقة *أراغون وفوضوي* من كاديس وقع ضربهما حتّى لم يبق لديهما أدنى أثر لقناعة مّا وتبدّدت كلّ أفكارهما. وكان *خوان* يفكّر في المعايير الّتي سيعتمدها الفارس *كابلان* ليمنع هذه المرّة بعض الرّسالة الّتي كان يكتبها لأخيه.

في تلك الفترة، بدأ يسمح ببعض الزّيارات للسّجناء بعد أن حصل على التّصاريح اللاّزمة الأقاربُ الّذين قدّموا أنفسهم على أنّهم رجال دين أو عسكريّون ذوو رُتب لزيارة أفراد أسرهم السّجناء الّذين لم يتمّ اتهامهم بتُهم خطيرة. بدأت تصل أخبار ملطّفة

بخصوص ذلك الصّمت. لقد كان هتلر محاصرا في معركة إنجلترا، وكان رجال المقاومة ينتظمون في عدّة جهات من الشّمال، وراجت إشاعة مفادها أنّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة ستزحف على شبه الجزيرة من جهة الجنوب.

جميعهم كانوا يتمنّون أن يمرّ الزّمن، وتعلّموا أنهم كلما عدوا إلى السّتّين مرّت دقيقة لكنّ الأيام كانت ممتدّة.

كان بين السّجناء رجل متقدّم في السّن صموت، يتجنّب الاقتراب من الآخرين حتّى في اللّيالي الّتي كان الجميع يتكدّسون فيها بحثا عن دفء غيرهم. كان الجميع ينادونه *الرّضيع*، وقلّة أولئك الّذين كانون يعرفون اسمه. كان يتحمّل بصبر البردَ والجوع وارتياب الآخرين. كانت لديه ندبة كبيرة تفرق شعره إلى قسمين. من ذلك الوجه الحزين الّذي ما كان يحتفظ بأيّ ملمح باستثناء الصّمت وعينين واسعتين لا تطرفان كأنّهما كانتا في حال اندهاش مستمرّة.

لم يكن يتحدّث قطّ. كان ينصت إلى الأصوات الّتي تأتي من السّاحة أو من بقيّة الدّهاليز وإلى الضّجيج الّذي ينقله الهواء، وينأى بنفسه دومًا عمّا يقوله أولئك الّذين كانوا يتقاسمون معه الاعتقال. كان اسمه *كارلوس أليغريا*، وكانت رتبته فارسا مؤقّتا بالجيش المتمرّد. وكان ينتمي إلى عائلة فلاّحين ميسورين بـ *بورغوس*. وفي 18 يونيو من سنة 1936 كان على وشك أخذ القطار للعودة إلى منزله بـ*منسلمنكا* حيث كان أستاذا مساعدا بشعبة القانون الرّومانيّ لمّا علم بوقوع انقلاب عسكريّ بشمال إفريقيا. لقد فكّر في ما يلي: *«دافع عمّا*

تملكه»، وبحث عن طريقة للالتحاق بالمتمرّدين. وبشكل فوريّ حصل على رتبة فارس مؤقّت بفضل تكوينه الجامعيّ. ولم يكن بطلا ولم يحدث أن شعر بالخوف الّذي تولّده الحرب. لقد كان دائم الحضور بالثّكنات الّتي تؤمّن المؤونة للمقاتلين استجابة إلى نداء لوائح أمناء في الجيش عرفوا بجشعهم ووفائهم للقضيّةكانوا دوما محطّ شبهة. واعتبارا لتفانيه في العمل ترقى إلى درجة قبطان مكلف بتدبير المؤونة.

لقد هرب من الخدمة ساعات قبل أن يسلّم العقيد *كاصادو* السّلاح أمام الجيش المتمرّد زمن كانت الحرب على وشك الانتهاء أمّا هو فقد انتقل من غير سلاح أو أمتعة، إلى معسكر المهزومين... لا أحد صدّقه من الجمهوريّين ولا أحد حماه عندما دخلت فرق فرانكو إلى مدريد. فقد اعتُقل على الفور وحوكم ورُمي بالرّصاص ذات فجر رفقة عشرات من التّعساء كانوا أوّل من ماتوا لأنّهم كانوا أوّل من قُبض عليهم.

إنّ السّرعة في القتل تمنع من أن يكون الموت مُتقَنا. لقد أصابت رصاصة أعلى جبهته ومرّت بمحاذاة جمجمته دون أن تكسرها. وظلّ بلا حراك بعد أن حالت الحاجة إلى توفير الذّخيرة دون استعمال رصاصة الرّحمة بالنّسبة إلى محكوم عليه غُفل كان كلّ وجهه ملطّخا بالدّم. ودفن في قبر جماعيّ بسرعة مثله مثل الباقين، حيث يكاد التّراب لا يغطّي بعض تلك الجثث.

وعندما استعاد وعيه، كان مدفونا بشكل سيّء بين الأجسام غير المنظّمة لهالكين آخرين ماتزال تلتصق بهم روائح تدلّ على وضعهم

السّابق: عرق، بول، وما يمكن أن تكون عليه رائحة الخوف. ترك الشّكل غير المنظّم الّذي كان عليه المدفونون أكياسا من الهواء تنفّسها وحده، إنّها هديّة وداع من طرف خصومه. ودون أدنى فكرة عن الزّمن أو أدنى دليل على أنّه مازال على قيد الحياة -سوى ألم واخز برأسه- تمكّن من تحريك الموتى الّذين كانوا يسحقونه بثقلهم وإزالة طبقة التّراب الّتي كانت تفصله عن السّماء. كان حيّا بخلاء مّا -وسيعرف من بعد ذلك أنّ المكان هو *أركاندا ديل راي*- غارقا في ظلمة منعشة لفصل ربيع تسلّل إلى تلك المقبرة المرتجلة.

حاول البحث عن المساعدة، لكنّ كلّ الّذين رأوا ذلك الرّجل المدمى بجرح كبير في الرأس، كانوا يغلقون أبوابهم بمرتاج الرّعب. فلم يغثه أحد. ولم يعيروه قميصا ليخفي الدّم المتخثّر في قميصه ولا أحد قدّم له طعاما، أو دلّه على طريق العودة إلى منزل أبوَيه.

في أواخر شهر أبريل، اعتقل من جديد بـ*صوموسيرا* وأرسل مرّة أخرى إلى ثكنة *كوندي دوكي* ليعاود من جديد المرور بصراط الموت.

ولمّا كان ضباط السّجن القساة يسألونه عن انتمائه العسكريّ كان يقدّم، دوما، الإجابة نفسها: «اسمي *كارلوس أليغريا*، ولدت في 18 أبريل 1939 بقبر جماعيّ بـ*أرغاندا* ولم أنتصر قطّ في أيّ حرب».

لهذا أطلقوا عليه لقب *الرّضيع*.

كان خوان يشعر بشيء من انجذاب نحو هذا الرّجل الوحيد الصّموت، وكان يثيره غيابه الدّائم الّذي يكذّب الشّبهة العامّة الّتي

تروّج لكونه مندسّا يسترق المعلومات. وعند قدوم اللّيل في يوم لم تكن فيه لائحة، اقترب من المكان الّذي كان فيه *خوان* يراود النّوم وهمس في أذنه: «أنا وأنت نعيش بالاقتراض. علينا أن نفعل شيئا حتّى لا نكون مدينين لأيّ كان بأيّ شيء». وابتعد باتّجاه آخر الدّهليز حيث كان حاجز الدّخول الحديديّ وشرع يصرخ: «أيّها الحارس، أيّها الحارس» بنبرة مستهترة صارمة في الوقت نفسه.

ظلّ كلّ السّجناء متمسّكين برباطة جأشهم محافظين على الوضع الّذي كانوا عليه قبل أن تفاجئهم الصّرخات. كان *الرّضيع*، وهو يضرب قضبان الحاجز الحديديّ بصحفته، يواصل صراخه بقوّة ما كان أحد يظّنها لدى ذلك الرّجل النّحيف الّذي وشمه الموت. وأخيرا اقترب منه جنديّان وعملا على إبعاده عن الباب بقندق البندقيّة. غير أنّ قدرته على الإحساس بالألم كانت قد نفدت منذ أمد بعيد أمام كتيبة متسرّعة للإعدام، ولم يكن يبدو أنّ ضربات البندقيّة الشّديدة تؤثر فيه وفي عراكه، وتمكّن من القبض على قندق إحدى البندقيّات وبحركة سريعة وغير متوقّعة، انتزعها من الجنديّ الّذي كان يضربه. وفي جهة من الحاجز جنديّ مسلّح وآخر منزوع السّلاح، وداخل الدّهليز صمت جماعيّ متراكم في سكون لا متناه وراء *الرّضيع* وهو يصوّب البندقيّة نحو حرّاسه.

وتجاوز هذا الصّمت الحاجزَ والدّهليزَ واللّيلَ الّذي جنّ قبل أوانه ولهاثَ *الرّضيع* الباحث عن العدل. ولم يحدث الجنديّ المسلّح نفسه أيّ ضجيج عندما ترك بندقيّة صنف *ماوسر* على الأرض مطيعا إشارة سلطويّة من ذلك المجنون الّذي فتح قفل سلاحه بحركة احترافيّة

سريعة. وحوّل البندقيّة ببطء نحو نفسه ووضع طرف الفوّهة على ذقنه وقال إنّه لم يقتل من قبل وإنّه -مع ذلك- سيموت مرّتين. ثم أطلق الرّصاص ليكسر ذلك الصّمت ويسدّد دَينه.

لقد وضع الصّراخ والصّفير والأوامر الصّارمة والدّهشة حدّا لذلك اليوم الّذي كاد يمرّ دون موتى. هنالك أعطى الفارس *كابلان* المسحة الأخيرة لروح تطايرت إلى آلاف القطع.

في اليوم التّالي كانت هنالك لوائح في السّاحة وشاحنات تقل رجالا خنوعين قادمين من الدّهليز الرّابع، لكن لم تكن هناك مناداة للمثول في القبطانيّة العامّة أمام العقيد *إيار*. كان خوان مايزال تحت تأثير سلوك *الرّضيع*، وكانت استكانته الخاصّة تجاه الموت تبدو في كلّ مرّة، وبشكل أقوى، غير قابلة للاحتمال.

الموت؟ لماذا الموت؟ حتى الآن، لا أحد اتّهمه بشيء ملموس باستثناء أنّه عاش بمدريد خلال الحرب. لا أحد كان يعرف أنّه عاد من *إلدا* مكلّفا من طرف *فيرناندو كلودين* بمهمّة ترتيب محاولة اغتيال العقيد *كاسادو*.

درس عادات *كاسادو* رغم أنّ الوقت لم يكن يسمح له بذلك وسجّل ساعات دخوله وخروجه من مقرّ القبطانيّة بدقّة. وعرف أين كان يعيش وأيّ طريق يتّبع في العادة.

ولما كان كلّ شيء معدّا لتنفيذ الهجوم، استسلمت مدريد لقوّات الجنرال *فرانكو*. فلم يتمكّن من تأخير الهزيمة ولو ليوم واحد.

هذا الأمر كان لا يعرفه غير *طوكلياتي* و*كلودين* ولا أحد كان

سيسألهما عن أيّ شيء. كان لايزال بإمكانه أن يكون موظّفا بسيطا بمصلحة السّجون. وهو الشّاب الشّديد الغموض والمستعدّ دائما لأن يكلَّفَ بأيّ مسؤوليّة في الحرب. وكان هذا الأمر يواسيه. غير أنّه يمكن أن يكون مهزوما خاسرا بالمصادفة، لأنّه كان بمدريد في 18 يونيو 1936.

ربّما سيتمكّن من إخفاء هزيمة *خوان صينرا*.

سمع اسمه يتردّد عبر السّلالم الّتي كانت توصل إلى الدّهليز كأنّه كان في كهف. سبق الصّدى الصوت، وحينما صرخ العسكريّ مرة أخرى مناديا اسمه أمام الحاجز الّذي يغلق الدّهليز، كان الجميع ينظرون إليه، ساكنين، خنوعين، مندهشين. لقد كانت للموت مواقيت، وهذه كانت ساعة غير مناسبة.

ودون أن يضع الصّحفة، رفع يده وخاطبه أحدهم بحدّة قائلا: *«تعال هنا»*، وانفتح له الطّريق بين المجموعات المتحلّقة دون حراك ليواصل السّير من غير عراقيل حتّى بلغ المدخل مسبوقا بالرّقيب *إيديلميرو* ومحاطا بجنديّين مهلهلين ضعيفين، وأُخذ إلى غرفة ضيّقة بلا نوافذ كانت توجد إلى جانب المطابخ في السّرداب .

هنالك كان العقيد *إيار* والمرأة ذات معطف *فرو الأستركان* -وهي تقبض على حقيبة يدها كما تشدّ الكواسر على غنيمتها- جالسين على مصطبة صغيرة من الآجر وكانت المرأة تتهيّأ للنّهوض، غير أنّ حركة سريعة شبيهة بحركات القطط صدرت عن العقيد منعتها من ذلك.

كان الرّقيب والجنديّان ينتظران أمرا من رئيسهما المباشر، وهو أمر اتّسم بالرّخاوة وعدم الدّقة.

سأل الرّقيب مندهشا:

- هل تريد أن تبقى وحدك مع السّجين سيّدي العقيد؟

غير أنّ الحركة غير الدّقيقة رُسمت في الهواء هذه المرّة في حجم أكبر وردّد «*تحت أمرك سيّدي العقيد*»، خرج الرّقيب من الغرفة يتبعه الجنديّان. ولم يغلقا الباب وظلاّ على بعدٍ كاف حتّى لا يسمعا ما يروج، ولكنّهما قريبان بشكل يسمح لهما بأن يتتبّعا ما يحدث في تلك الغرفة.

وما شاهداه هو أنّ العقيد وزوجته ظلاّ جالسين قبالة *خوان صينرا* الّذي كان ينتظر، دون حراك، تفسيرا لما كان يحدث.

وشاهدا كذلك كيف أنّ المرأة ذات معطف *الأستركان* البالي أخرجت صورة من حقيبة يدها ببطء ، وأرتها للسّجين الّذي حرّك رأسه موافقا.

لم يتمكّن الرّقيب *إيديلميرو* من أن ينصت إلى *خوان صينرا* وهو يحكي لوالدي *ميغيل إيبار* كم كان ولدهما بسيطا وتلقائيّا بطبعه غير القابل للخضوع والشّجاعة الّتي أبان عنها حين رفض الهرب من مدريد لمّا انقلب كل شيء ضدّه. ولم يستطع الرّقيب أن يسمع الحكايات الّتي كان ينسجها *خوان صينرا* أمام أمٍّ كان وجهها يضاء بمقدار ما كانت منجزات الكذب تحلّ محلّ فظاعة الواقع.

وكذا لم يتمكّن من أن يحدس -فالحرب لا تترك رهافة الانتباه للتّفاصيل- بأنّ غريزة البقاء كانت تترك مكانها لإحساس بالشّفقة تجاه امرأة فقدت رشدها بفعل ألم كان *خوان صينرا* يتعرّف عليه كما يتعرّف على لهاث الموت.

لم يكن الرّقيب يرى غير اقترابها من السّجين *صينرا* الّذي تحدّث بفصاحة غير معهودة وبشكل مسترسل مجيبا عن أسئلة مقتضبة ومتوسّلة من زوجة العقيد. ورأى كذلك، تحت وقع مفاجأة كبيرة، كيف أنّها أخذته -كما تفعل أيّ أمّ- من ذراعه وأجبرته على الجلوس قرب العقيد المذهول على المصطبة الصّغيرة الّتي لم يكن الرّقيب *إيديلميرو* بإمكانه أن يرى غير جزء منها بحكم وجودها على يمين الباب. استأذن أحد الجنديّين ليلفّ سيجارة، وتوقّف الشّهود الثّلاثة عن متابعة ما يجري دون أن يتجرّؤوا على السّؤال عن سلوك رئيسهم المباشر.

عندما عاد *خوان* إلى الدّهليز الثّاني، كانت الكلمات الأخيرة لتلك ماتزال ترنّ في أذنيه: «سآتي لك بقميص صوفيّ فالبرد قارس»، وتوسّل إليها العقيد الباحث عن العدالة قائلا: «*فيوليتا* من فضلك».

كان لا يكاد يجرؤ على أن يحدّث أيّا كان بما يقع له. وباستثناء *إدواردو لوبث* لم يسأله أحد. لقد أجبره الارتباط الوثيق الّذي تعنيه العلاقات النّضالية على أن يصرّح بكلّ شيء أمام المسؤول السّياسيّ الّذي لم يخف استغرابه.

كان *خوان* على وشك الحديث عن لغة غير مفهومة، لكنّ شيئا

مّا نبّهه إلى أنّ *إدواردو لوبث* كان يسمّي الأشياء بمسمّياتها، وأنّ اليوم التّالي كان يوم أحد.

أُجبر كلّ السّجناء على حضور القدّاس الّذي أحياه الفارس *كابلان* بالدّهليز نفسه. وفي موعظته الحربية، الحانقة الممجّدة للوطن، تحدث عن *الرّضيع* وأدان الانتحار بوحشيّة لكنّه لم يتحدّث عن وفيّات أخرى. وأنصت الجميع في صمت، وأمّا البعض فقد اقترب، عندما حان الوقت، لتناول القربان بغريزة بقاء أقوى ممّا هو عند الآخرين. وكان الشّابّ ذو بيض القمل من بينهم. ولمّا عادوا إلى أماكنهم، ركع الّذين تناولوا القربان مغطّين وجوههم بأيديهم بحركة فيها من رغبة الهروب أكثر ممّا فيها من الخشوع.

وعندما سأل *خوان* الشّابَّ إن كان يعتقد أنّ تناول القربان سيغيّر مصيره، أجابه: على الأرجح نعم، ولكنّ ما يهمّ على الخصوص هو أنّ الرّقاقة طعام، وأنّه يشعر بجوع قاهر.

دفعته خطبة القسّيس إلى أن يُتمّ رسالته الّتي لا تنتهي. وكان إيقاع الزّمن البطيء يجعل الوقائع تمرّ بسرعة... تتسارع... وإن كانت الثّواني تمرّ بتأنّ يثير الغيظ.

وما إن تمكّن من الابتعاد حتّى استعاد القلم والورق وواصل الكتابة:

«مازلت حيّا. لغة أحلامي تبدو في كلّ مرة أكثر وضوحا. أتحدّث عن التّخفيف حين أرغب في التّعبير عن عواطفي وأمّا الرّقّة في الجواب فهي الخصلة الفريدة للّذين يحدّثونني بحنان. هي كلمات

يستعملها النّاس في أحلامي ليحدّثوني عن مناظر أشتاق إليها وأمكنة تتحدّى الحواجز وكلمات استحدثوها... وأنا يروق لي أن أتحدّث هذه اللّغة».

جلس الشّابّ صاحب بيض القمل إلى جانبه وظلّ صامتا. فتوقّف *خوان* عن كتابة الرّسالة، وعرف أنّه تعلّم ترتيب الأحزان والتّفريقَ بين يأس وآخر وتعرّف على الخوف الممزوج بالبغض، وخَبِر البغض وحده والخوف الصّافي. وكان يعرف التّمييز بين الّذي يندم لأنّه لم يفعل شيئا محدّدا، والنّادم لأنّه فعل شيئا. غير أنّه كانت لذاك الشّابّ نظرة فيها ندبة شعُر بأنّه شرع في نسيانها: إنّه الحنين. وربّما لذلك السّبب تحدّثا بتأنّ، وهما ينظران إلى السّماء عبر مربّعات تشكّلها نافذة بشبّاك. حدّثه *خوان* عن *موزارت*-مهزوم آخر- وعن *ساليري*، وحدّثه عن *رامون إي كاخال*-مصارع وحيد- وعن كيفيّة تشكّل الغيوم. وحدّثه عن *داروين* وعن الأهميّة الّتي اكتساها إصبع الإبهام في عمليّة تحوّل الإنسان إلى إنسان، وكيف ينزل من الشّجرة ويتعلّم قتل من يشبهونه.

- لكنّ كلّ ما جرى: الجبهة الشّعبيّة والحرب، كلّ ذلك للقضاء على ذلك؟ أليس كذلك؟

في تلك الأمسية الباردة، بدهليز خلا من الحركة الطبيعيّة للأشياء، لم يجد *خوان* قوى لمواساة صديقه. فلا شيء كان نافعا لأنّ المنطلق لم يكن حقيقيّا. ومهما فعلت، ستجد دومًا نصف أناسك ضدّك. وإنّ ذلك لَفي منزلة عقاب. ولا أحد مطالب بأن ينجزه بشكل جيّد. هل كلامي مملّ؟

- أنا مستعدّ لإعطاء أيّ شيء مقابل لفّ سيجارة.

كان هذا هو جوابه.

وبتطرّقهما إلى هذا الموضوع وذاك، نسيا الموت. ومرّ يوم أحد خلسة بمدينة سئمت الخوفَ. وجاءت أيّام تتلوها أيّام بلوائح في الفجر واستدعاءات للمثول أمام محكمة العقيد *إيمار*. ولكن، مع مرور الوقت، أصبحت فترات الرّاحة مألوفة رتيبة. أمّا اليوم، فلم تكن هنالك شاحنات الموت، وغدا لم تكن هناك حالات مثول أمام محكمة ردع الماسونيّة والشّيوعيّة... ولم تتمّ قطّ المناداة على *خوان*.

وذات مساء، بعد مرور بضعة أسابيع، سمع اسمه بقوة في الممرّات، ورافقه الرّقيب *إيديلميرو* مرّة أخرى إلى الغرفة الضّيّقة الّتي كانت توجد بجانب المطابخ. وهناك، كان العقيد الصّارم المعتدّ بنفسه وزوجته المغلّفة بمعطف *الأستركان*. ولم تكد تراه حتّى مدّت له قميصا صوفيّا أخضر اللون. «كان *لميغيل* الصّغير» قالت له. وابتدأت، كأنّ الوقت لم يمرّ، من حيث توقّف حديث اليوم السّابق.

كانت تحكي طرائف عن ابنها مقابل أكاذيب *خوان* الّذي تذكّر أنّ *ميغيل* خلع جوارب الصّوف ليعيرها سجينًا آخر جمّده البرد، وأنّه في إحدى المناسبات، رمى بحصّته من الأكل في وجه الطّباخ الّذي رفض أن يعطي خبزا لسجين كان يغنّي *«في مواجهة الشّمس»* كلّما توجّه إليه أحد بالكلام...

كانت أكاذيب، غير أنّها ليست مختلقة بشكل كامل، ولكنّها منسوبة إلى غير صاحبها...إلى شخص ما كان بالإمكان أن ينسب

إليه أمر بطوليّ أو أنفة. كان للاستراتيجيّة مفعولها الإيجابيّ. وقد تأكّد *خوان صينرا* من ذلك. ففي مناسبتين لم يلق الرّقيب *إيديلميرو* أيّ اهتمام عندما نكس رأسه وهو يقول بخنوع: *«سيادتك تأمر بما تشاء سيّدي العقيد»*، وكذا عندما تحوّل صبر العقيد *إيمار* إلى جمل وديعة *«فيوليتا، الوقت متأخّر»* أو «فيوليتا، ليس لدينا إذن سوى خمس عشرة دقيقة».

فتحت المرأة حقيبة يدها ومدّت إليه سندويتشا من سمك الرنكة ملفوفا في ورق قشّ. ثم قالت بنبرة متحدّية وهي تنظر إلى زوجها:

- سوف أعود.

تحمّل *خوان* التّحقيق الرّتيب لإدواردو لوبث واقتسم السّاندويتش مع الشّاب ذي بيض القمل... وما الّذي كان يجعل المسؤول السّياسيّ يعتقد أنّه في يوم من الأيام سيستعمل المعلومات الّتي يراكمها؟ كونه مازال حيّا مردّه بكلّ بساطة إلى المصادفة، إلى نظام اعتباطيّ للموت. وبالإضافة إلى ذلك، كان من المستحيل إقامة أيّ تواصل مع العالم الخارجيّ. ومع ذلك، وبفعل انضباطٍ محمود، كان يواصل مراكمة المعلومات ويحلّل سلوك السّجناء.

اعتذر *خوان* بعذر مختلق لينهي المحادثة، فللحياة رائحة سمك الرنكة وهذا ما يجعلها رائعة.

مرّت الأيام وكان شهر مارس باردا ورطبا كما يكون الزّمن غير المأهول.

وبرغم شعوره بنفور تجاه المعطف الصّوفيّ لـ *ميغيل إيمار*، فقد

كان ممتنّا للدّفء الّذي كان يمنحه إيّاه خلال تلك اللّيالي الّتي لا تريد أن تنتهي.

تتابعت اللّوائح وإن كانت أكثر قِصرا في كلّ مرّة، وكان الّذي يبعث على الأمل هو علمهم بأنّه تمّ النّطق بأحكام بالسّجن المؤبّد لا بالإعدام.

كان ذلك شيئا شبيها بالحياة.

تلقّى زيارة أخرى من المرأة ذات المعطف *الأستركان* وزوجها الخنوع. فعاود الكذب واختلاق حكايات بطوليّة كانت تنتزع الإعجاب من تلك الشّفتين الشّاحبتين اللّتين ما كان بإمكان أحد أن يتصوّرهما وهما تقبّلان. وفي وضع شبيه بوضع شهرزاد، كانت تلك الأكاذيب تسمح له بليلة إضافيّة، وبليلة إضافيّة أخرى وبليلة إضافيّة أخرى إلى أن جاء اليوم الّذي كان فيه الشّابّ ذو بيض القمل في أوّل التّرتيب على لائحة من سيتلقّون حكم العقيد *إيار*. انتظر *خوان* طوال اليوم عودة المحكوم عليهم. واستطاع أن يصرخ من النّافذة سائلا إن كان أحد يعلم شيئا عن مصير *أوخينيو باث*. ولكن لا أحد أعاره اهتماما ولا القسّيس نفسه استطاع أن يقول له شيئا عمّا حدث للشّابّ. فابتدأت أيّام من ضيق جديد على *خوان*، ضيق على ضيق، وحيرة على حيرة.

إنّ الحيوات المحجوزة في السّجون، تعيد، بهذا القدر من الاستعجال، تركيبَ تاريخ من المشاعر والذّكريات المتراكمة في الزّمن إلى درجة أنّ السّجناء أنفسهم يفاجأون بأنّ توليد المشاعر

السّابقة المنتمية إلى الخارج يقتضي حياةً بأكملها تعاش بكثافة. ورغم ذلك، ارتعب خوان حينما ألحّت عليه فكرة أنّه لو كنّا أحياء في القبر لانتهى بنا الأمر إلى أن نحبّ الدّود.

قدّم قميص *ميغيل إيدار* رشوةً للرّقيب *إيدلميرو*، ولكنّه تمكن من أن يعرف أنّ *أوخينيو* موجود في الدّهليز الرّابع دون أن يعرف فحوى الحكم. وحاول أن يوصل إليه رسالة لكنّه لم يكن يملك أيّ شيء يدفعه عوضَ توسّلاته، ولم يعرف *أوخينيو باث* أنّ *خوان صينرا* قد أرسل له ضمّة صديق وأخ.

لم يعرف قطّ أنّ *خوان صينرا* كان يريد أن يعثر على الفتاة الحامل الآتية من *سيغوفيا* ليقول لها إنّ أوخينيو كان وفيّا ومشتاقا إليها. لم يعرف قطّ أنّ *خوان* كان منشغلا بالجروح الّتي تخلّفها محاولة التّخفيف من التّهيج الّذي يسبّبه القمل.

وذات فجر، وهو ملتصق -رغم البرد- بشبّاك النّافذة الّتي كانت منزوعة الزّجاج، سمع اسم *أوخينيو باث* وقد نادى عليه الضّابط الّذي كان يعدّ مَن تمّ اختيارهم للموت ذلك اليوم. فقام *خوان* بالمجهود الجسديّ الأخير في حياته فتعلّق بالنّافذة وصرخ: «*أوخينيو*، لا تصعد إلى الشّاحنة. أنا *خوان*».

استمرّ صوت الضّابط صارخا مناديا بقوّة على أسماء أخرى كأن لا شيء كان بإمكانه مقاطعته حتّى غادرته قُواه وترك *خوان* نفسه يسقط في حالة وهن. بكى كما لم يكن يتصوّر أنّه كان بالإمكان البكاء بعد حرب. وعندما اختفى أزيز المحرّك خلف بوّابة السّاحة، كان

المتعوّد على تأويل أنواع النّشيج أو المترجم المتمرّس بالبكاء سيستنتج أنّ *خوان* نطق، في خضمّ كلّ تلك الأصوات المتقاطعة، بكلمة *«وداعا»*. ولكن لا أحد سمعه، فتمكّن منه فتور دون إحساس بالبرد ولا بالجوع ولا بالآخرين أنفسهم وذلك خلال يومين وليلتين كأنّ جسده توقّف عن الاشتغال، وكأن الزّمن نفسه مات حزنا.

تبيّن لـ *خوان* أنّه لم يعد لديه متّسع من الوقت لينهي رسالته. وبأحرف معتدلة صغيرة واصل الكتابة حتّى أتمّ الورق الّذي كان قد حصل عليه:

«مازلت على قيد الحياة، ولكن حين ستصلك هذه الرّسالة، سأكون قد أُعدمت. حاولت أن أجنّ لكنّي لم أتمكّن من ذلك. سأتنازل عن مواصلة الحياة مع كلّ هذا الحزن. لقد اكتشفت أنّ اللّغة الّتي حلمت بها لخلق عالم أكثر لطفا هي في الحقيقة لغة الموتى. اذكرني دائما وابذل جهدا لكي تكون سعيدا. أحبّك... أخوك خوان».

حاول أن يتخيّل حركة الملازم الثّاني القسّيس لما سيكون مطالبا بأن يمارس الرّقابة على رسالته. فأغلق المظروف، وكتب عنوان أخيه وسلّمه إلى حارس الدّوريّة لتأخذ الرّسالة مسارها. كان ذلك هو المعمول به.

هكذا كان الموتى يودّعون الأحياء دومًا.

في اليوم الثّالث، كرّر الجاويش *إيديلميرو* اسمه إلى أن تخلّص *خوان* من خموله. ساعده أحدهم في الوصول إلى الباب ولم يسر الجنود إلى جانبه هذه المرّة لأنّهم احتاجوا إلى كلّ قواهم ليسندوه ويأخذوه

إلى المرأة ذات معطف *الأستركان*. كانت هناك منتبهة، بحسّ أمومة بيّن، حاجبة بجشعها الغامض الحضور الباهت للعقيد *إيار* الّذي ظلّ، كعادته، متواريا في خلفيّة المشهد.

سألته إن كان مريضا. تأخّر *خوان* في الإجابة كأنّه لم يفهم، وفي الأخير تمكّن من القول:

- أنا ميّت.

- هيّا، هيّا.

قالت المرأة متحمّسة وهي تأخذه إلى المصطبة: ستأخذ الأمور مجراها.

انقاد خوان وراءها، وبحركة من رأسه أعلن عدم موافقته.

- أنت شابّ وهذا الوضع لن يدوم، سوف ترى.

لكنّ *خوان* كان يواصل إعلان عدم موافقته بحركات فيها وداعة.

- أحضرت لك ساندويتشا.

- لا أشعر بالجوع.

- عليك أن تأكل. سحنتك ليست على ما يرام.

- أنا بخير.

- ما الأمر إذن؟

نظر خوان إلى هذين الكائنين المؤدّبين اللّذين يحدّثانه ويعاملانه كأنّه في ملكيّتهما. كان *خوان* ألعوبتَهما، شيء مّا ينبغي أن يشتغل

عندما يضغطان على الزّرّ، أن يتحرّك عندما يدفعانه وأن يقف عندما يأمرانه بذلك. لهذا لم يتمكّنا من فهم سلوكه.

قال: ذلك أنّني تذكّرت أمرا مّا.

لقد ارتكبت تلك المرأة خطأ باستفسارها عمّا تذكرّه وجعله مريضا بهذا الشّكل.

قال لها *خوان* إنّه كان قد تذكّر الحقيقة، وهي أنّ ابنها كان قد أعدم بشكل عادل لأنّه كان مجرما، لا مجرم حرب، هذا التّعريف الّذي يختلف تقييمه بحسب الجهة الّتي ننتمي إليها، بل كان مجرما من الصّنف الرّديء، ولصّا قاتل مدنيّين قصد سرقتهم وبيع المسروقات بعد أن يتلاعب بها، ومقدّمَ خدمات للمنحرفين، وأمّا ما هو أدهى فكونه خائنا لشركائه. وكان وراء سقوط منظّمات تتاجر بشكل غير قانونيّ بالأدوية، ولكن -لحسن الحظّ- لم ينفعه في شيء كونه جبانًا، إذ حوكم من طرف محكمة عادلة وتمّ إعدامه من طرف كتيبة أكثر عدلا. ولم يكن موته بطوليّا، فأنا -وكان في هذه النّقطة يكذب- كنت حاضرا أعطي التّعليمات للكتيبة الّتي أعدمته. لقد تغوّط في سرواله وبكى وتوسّل ألاّ نقتله وأكّد أنّه مستعدّ لتقديم معطيات إضافيّة تخصّ المنظّمات الموالية لفرانكو الموجودة في مدريد... كان مجرّد خراء ومات كما كان. كلّ ما حكيته لكم قبل الآن كان كذبا. كذبت لأنجو بنفسي، ولكنّي لم أعد أريد مواصلة العيش إن كان ذلك يشعركما بشيء من الرّضا. الآن أريد أن أرحل.

كلّ هذا كان مثل برق، رجّة جمّدت نفس العقيد *إيبار* وزوجته.

أنصتا إلى ذلك الرّسم المنفلت لابنهما وقد أنجز بألوان تبيّن لهما بشكل فوريّ أنّها ألوان الحقيقة. لا أحد يكذب ليموت.

لم يبديا أدنى اعتراض على خروجه من الغرفة الصّغيرة الّتي دخلها منهكًا، وها هو يخرج منها الآن ويأمر الجاويش بأن يقتاده إلى الدّهليز. وبرغم أنّ ضابط الصّفّ بحث عن أمر من العقيد، فإنّ نظرة رئيسه المباشر الجامدة وقع تأويلها على أنّها بمثابة موافقة. واسترجاعا لنعرة عسكريّة شعر -بشكل مفاجئ- أنّه ملزم بإظهارها، قام بدفع *خوان صينرا* وترك مسافة احتياطيّة بينهما عندما كانا يصعدان السّلالم المؤدّية إلى الدّهليز الثّاني.

لم يتحدّث *خوان صينرا* مع أحد. لم يقف في الصّفّ ليأخذ الطّعام في صحفته. وظلّ صامتا في مواجهة النّافذة الّتي كان يحدس -من خلال شبّاكها- بوجود سماء شاسعة رماديّة قادرة على إلغاء فصول الرّبيع.

يومان بعد ذلك، كان اسمه هو الأوّل في لائحة مطلوبة للمثول أمام المحكمة. كان الأوّلَ في المثول أمام العقيد *إيبار*. وكان أوّل من حكم عليه بالإعدام في ذلك اليوم ولم تجبره تهديدات الملازم الثّاني *ريوبو* ولا الضّربات على الوجه من طرف السّكرتير الأبهق راسم الرّايات، على أن يلتزم بشيء شبيه بوقفة عسكريّة.

وفي الفجر التّالي، كان اسمه هو الأوّل في لائحة من سينزلون إلى السّاحة. وعندما تجاوزت الشّاحنة الّتي كانت تقلّه -رفقة مسجونين آخرين- بوابّةَ السّجن نحو مقبرة *ألمودينا*، فكّر خوان أنّ *إدواردو*

لوبث سوف يكون أكثر هدوءا وهو يعرف أنّه لم يكن هناك أيّ سبب ليظلّ على قيد الحياة. وحاول أن يخمّن أيّ معايير سريّة اعتمدها الملازم الثّاني القسّيس ليحجز الرّسالة الّتي كان قد كتبها لأخيه وشعر بارتياح لفكرة أنّه لن يتمّ بعثها أبدا.

وممّا منحه باعثا إضافيّا على الشّعور بالسّكينة، تأكُّده من أنّ تعويج الفم الدّال على الرّضا دون عقاب سيختفي من وجه العقيد *إيمار* إلى الأبد.

فقط كفّ عن الكراهية عندما تذكّر أخاه.

الهزيمة الرّابعة: ••••
أو أزهار عبّاد الشّمس العمياء

أبانا المحترم، أنا تائه مثل أزهار عبّاد الشّمس العمياء. وعلى الرّغم من أنّي عاينت اليومَ موت شيوعيّ، فإنّي يا أبانا، في ما عدا ذلك، هزمت، ولهذا فإنّي أشعر بأنّي مثل سحابة غير مستقرّة(*)(1)... مثل ظلّ(*)، مثل ظلّ منفلت.

اقرأ رسالتي كما لو أنّها كانت اعترافا، وفي النّهاية اعفُ عنّي، ولكن صلّ من أجلي إذا كان لخطيئتي، وهو ما أخشاه، ألاّ تكون موضوع عفو؛ ففي ما يخصّ ندمي، أنا نفسي لديّ شكوك -هكذا هو شيطان جسمي- أمّا في ما يخصّ توبتي فتسعى هذه الرّسالة إلى أن تثبت أنّها تمت.

كلّ شيء يا أبانا بدأ عندما التحقت، عملا بنصيحتك، بالجيش الوطنيّ المجيد. حاربت ثلاث سنوات في الجبهة مشاركا في الحرب الصّليبيّة، وعشت مع كائنات مجيدة فظيعة، مع جنود مفعمين بأفكار مثاليّة وغرائز بائسة، لكنّهم كانوا يتوجّهون إلى الله عندما يتعيّن عليهم أن يختاروا بين الهلاك والمجد. لقد توحّدت معهم وذبت

(1) جميع الكلمات والتّعابير المتبوعة ب (*) هي باللاّتينية في النّصّ الأصليّ. (المترجم)

فيهم. ولم أكن نموذجا للقداسة، فأمام فظاعة مماثلة تكون الغرائز -في آخر المطاف- مرساة الحياة. ومن واجب الجنديّ أن يعرف أنّ الموتى لا ينتصرون في المعارك. فساهمت بدمي في تحويل «الجبل المحروق» إلى «جبل تصفية».

طوبى للعادلين، لأنّهم ما عادوا يريدون المزيد(*). والآن أتساءل، أبانا، ألن نطلب المزيد رغم أنّه علينا أن نطالب بالعفو بين الموتى والفاشلين والحطام الّذي خلفته الحرب؟

ثلاث سنوات من نسيان الحياة الشّخصيّة وحياة الآخرين تنتهي بأن يتحوّل المشارك في الحرب الصّليبية إلى جنديّ، وتتحوّل جيوش الإله إلى فرق للمتمرّدين. تحتاج حياة مَن لا يزال على قيد الحياة إلى شيء آخر، إضافة إلى الحياة نفسها: الاحتفال بالانتصار على الشّرّ وهو عنصر آخر مكوّن للنّصر. إنّ غضب الإله يمكنه أن يجعلنا نجنّ؛ أبانا، عرفت الآن معنى الاشتهاء؟

الاشتهاء مثل النّمور الّتي تعيش داخل الإنسان، مثل الأفيون الّذي يعرف كيف يحرّك جميع الأحجار بكلّ براعة، أن يرجّ إسمنت الرّوح كلّه. الاشتهاء، أبانا، وسيادتك ستكون قد تعرّفت عليه عبر معزل الاعتراف، هو شيء مدهش. يمكن أن يلقّحنا بزهو مصدره ارتكاب خطيئة، وكذلك بالرّضا الشّرير الّذي مبعثه أن نجعل جسدا يستمتع وهو يرغب في أن يموت، فيطلق، برغم وضعه المهين، صرخةَ حياة بإمكانها أن تذيب السّندان الّذي يزعم الجنديّ أنّه يقدّ عليه سلاحه الفولاذيّ.

ربّما تكون الوقائع قد جرت كما يحكيها آخرون، لكنّي أتعرّف إليها كمشهد تعيش فيه ذكرياتي. مازلت أتساءل كيف كانت الأشجار عندما زرعوها؟ أو كيف كانت أمّي وهي شابّة؟ وأيّ مظهر كان لي عندما كنت طفلا؟

كلّ ما ظلّ موجودا أثّر، على التّدريج، في ذكراه، لأنّ حضوره الفعليّ غيرُ متجانس مع الذّاكرة، ولكنّ ما فقدناه في الطّريق مازال مثبتا في لحظة اختفائه، محتلاّ مكانه من الماضي.

لهذا فإنّي أعرف كيف كان الّذي اختفى، وأعرف ما تركته وما تركني في لحظة من حياتي ولم يعد قطّ إلى حيث يتأثّر الواقع على التّدريج، في وقت كان وضعه الحاليّ يزاحم ماضيه.

ربّما لهذا أتذكّر أبي وهو شابّ، طويل القامة، نحيف، وحيويّ، يطوّق بذراعيه أمّي العجوز المرهقة الوديعة. أتذكّر الرّاهب *سالفادور* بثوبه الدّينيّ والعسكريّ وهو يضايق أمّي العجوز المرهقة والوديعة. وكذا رجال شرطة بذيئين وهم يشتمون أمّي العجوز المرهقة الوديعة. ولكنّي أذكر بالخصوص طفلا تربطه تواطؤات كثيرة بأمّه العجوز المرهقة الوديعة الّتي لا أتمكّن من تخيّلها كما قيل لي إنّها كانت شابّة وديعة مفعمة بالحيويّة.

آه! لقد كانوا يطمحون إلى تغيير نظام الأشياء، متجاهلين أن لا قوّة تعلو على قوّة الإله (*)، وكان علينا أن نلقّن نظاما جديدا للأشرار، كان علينا أن نمجّد نصرنا.

لمّا رجعت مدنّسا بالمصائب والخطايا، باحثا عن العفو بالمدرسة الإكليريكيّة، ربّما كان عفوكم سيكون أفضل من الاختبار الطّويل الّذي قرّرتم -أنتم أساتذتي- أن تُخضعوني له. كان تكويني أعلى من أغلبيّة زملائي، ولكنّي قبلت عن طيب خاطر أن ألتحق بمدرسة صاكرادافاميليا مدرّسا للأطفال في مستوى الإعداديّ. قبلت رتبة الشّماس في هيئة القدّيس الأب كابرييلتا بوريت المتخصّصة بشكل كامل في التّعليم. ها إنّي ألتحق بهيئة أدنى لأنسى هذياني وأستعيد النّور.

النّور! أبانا؛ بأيّ حسرة أتحدث اليوم عن النّور؟! كنت أحدّث تلاميذي الأطفال عن النّور لأنّني كنت بحاجة إلى إيقاظ قلقلهم المتبلّد: «عُدّوا النّجوم إذا استطعتم»(*). هكذا كنت أقول لهم، لأجعلهم يحسّون بضآلة حجمهم، وبأنّهم في منزلة أدنى وأنّهم مطالبون بالخضوع. لكنّ النّور يتأخّر كثيرا في اجتيازه للعتمة والألم. بأيّ إبداع عميق خلق الإلهُ الألمَ. في الحقيقة، يتبين لي الآنّ أنّ ما أريد التّحدّث عنه هو الألم، ذلك أنّي تعلّمت أنّ النّور والألم يشكّلان جزءا من التّوهج نفسه.

بدأ كلّ شيء مع تلميذ غريب الأطوار كان ضمن الأطفال الّذين أعلّمهم. ووحده الإله يعلم لماذا كان عليّ أن أنتبه إليه من بين مائتين وثلاثين . كانوا يعانون بأجمعهم من سوء التّغذية، ولذا فإنّ هُزاله لم يكن يعني شيئا. جميعهم كانوا مطيعين بشكل كبير، وخنوعين بشكل كبير، وهو جعل بؤسه يذوب وسط هذه الشّرذمة من الأطفال الخائفين الّذين كانوا يعتبرون ثوب الرّاهب رمزا إلى السّلطة المستعادة، الثّوب

الآخر لجيوش الإله. كان يلعب في الاستراحة، مثل أقرانه، ويظلّ صامتا في الصّفوف مثل أقرانه، ويصغي في القسم مثل الآخرين.... لكنّ شيئا ما كان يميّزه بدأ يثير انتباهي بالتّدريج. وأوّل ما فاجأني هو تمكّنه، بالرّغم من عدم تجاوزه سبع سنوات، من القواعد الأربع، في حين كان زملاؤه يتلعثمون إزاء كتاب مبادئ القراءة محاولين ربط الحروف فيما بينها لتشكيل كلمات ما كانوا يتمكّنون من فهمها.

لورينصو، هذا اسم الطّفل، كان يقرأ باسترسال بالطّبع.

- هيّا *لورينصو*، إنّها الثّامنة.

بحث *لورينصو* بين الملاءات عن نتف الحلم الّذي توقّف.

- سنصل متأخّرين إلى المدرسة... سأعدّ لك الفطور.

كان فصل الشّتاء ملتصقا بالشّرفات مترصّدا الهواء الفاتر ورائحة الهندباء المنبعثيْن من داخل المنزل. وكان بإمكان *لورينصو* أن يتحمّل كلّ شيء باستثناء الجوع، لذا نهض بطواعية وتُؤدة. ولبس المعطف فوق المنامة وعبر الممرّ باتّجاه المطبخ الموجود في الجهة الأخرى من المنزل. وكان أبوه -وقد ارتدى ثيابه دون أن يحلق لحيته- يحاول أن يضمن، على الأقلّ، أنّ موقدا سيحتفظ بالحرارة الكافية لتدفئة الحليب.

- صباح الخير يا بنيّ.

صوت آت من الحلق وحركة لا حماس فيها كانا الجوابَ الوحيد لـ*لورينصو* الّذي ترك نفسه يتهاوى فوق الكرسيّ الوحيد الموجود بالمطبخ.

وكانت هناك، بالإضافة إلى الموقد الحديديّ، طاولة من الرّخام موضوعة فوق كتلة من الحديد المنصهر مصبوغة بطلاء يشبه لون الذّهب وحوض غسيل من الحجر الاصطناعيّ يشبه الغرانيت. وهناك كانت صفيحة من الزّنك فوق مخزن الفحم تستعمل رفّا لما لا يحصى من القدور ومقلاتٌ مرتّبة بشكل دقيق كانت تلمع بفعل نظافتها.

كانت النّافذة تفضي إلى فناء ضيّق يسمح بتقدير ضوء النّهار وكان بعض السّتارات والمصباح المطفإ يحمي حميميّة المطبخ. وفي الفناء، كانت أصوات متداخلة وخلط لا يتوقّف للبيض تؤكّد أنّ اليوم بدأ.

- اشرب الحليب.

لم يكن خبز الجاودار يطفو. كان ينزل إلى قاع الفنجان الكبير الّذي لم تكن له قبضتا يد، وعلى أيّة حال فقد تمّ ترويض الجوع، وهو ما كان يجعله ينتظر بحكمة أن تمتصّ ذاك الحليبَ كسرةُ الخبز الجافّةُ وتصبح صالحة للأكل.

- أبي، لا أريد أن أذهب إلى المدرسة.

- ما الأمر؟

- إنّ الرّاهب *سالفادور* يترصّدني...

ظلّ الحديث معلّقا في الهواء، ذلك أنّ الأمّ -وقد ارتدت ملابسها- دخلت إلى المطبخ حاملة ثياب الطّفل وغسلت، بحنان مستعجل وفعّال، وجهه بفوطة مبلّلة بماء دافئ من قِدْر موضوع هو الآخر فوق صفيحة الموقد. ألبسته الجوارب وخلعت عنه المعطف

وسترة المنامة لتلبسه قميصا من فانلة ذات لون رماديّ. كان كلّ ذلك يحدث *ولورينصو لا يتوقّف* عن تناول فطوره المكوّن من الحليب وخبز الجاودار. ثمّ ألبسته قميصا من الصّوف الصّفيق، ووجدت صعوبة لا بأس بها وهي تمرّ بالرّأس ودون أن ترفع ابنها من فوق الكرسيّ حيث كان متهالكا، نزعت عنه سروال النّوم لتستبدله بسروال قصير بدرع الصّدر جاعلة إيّاه -بمهارة مَن تمرّس بالألعاب السّحريّة- ينزلق تحت المعطف الصّوفيّ إلى أن تمكّنت من أن تزرّر له الحمّالتين. وصادفت نهاية الفطور عمليّة تسريح للشّعر وتمكّنت، بعد جهد، من التّحكم في قبضة بقمّة الرّأس كانت تمنح الطّفل مظهرا شبيها بمن هُم في حالة فرار. وكان معطف من قماش أزرق محكوك من الكوعين ولفاع أخضر يغطّي وجه *لورينصو* حتّى العينين بمنزلة إشارة إلى أنّ الوقت المسموح به قد انقضى.

- أسرع. سنصل متأخّرين إلى المدرسة. امنح أباك قبلة.

لقد تحوّلت تلك الطّاعة الّتي أبان عنها وهو يُتمّ غسله وإلباسه وتسريح شعره في الوقت الّذي كان يتناول فيه خبز الجاودار مع الحليب إلى حركة تعويج للفم فيها دلال وجّهها إلى أبيه.

- لا أريد أن أذهب إلى المدرسة يا أبي.

- تكلّم بصوت خافت فقد يسمعك أحدٌ.

- يقول إنّ الرّاهب *سالفادور* مهووس بمضايقته.

- هذا صحيح. فهو يطرح عليّ دوما أسئلة تلو أخرى حتّى خلال فترة الاستراحة.

تبادل الوالدان نظرات بتواطؤ خفيّ، وبرغم الاستعجال، حاولا التّقليل من أهميّة فضولها.

- وعمّ يسألك؟

- مثلا ما مهنة أمّي؟ ولماذا لا تأتي أنت لمرافقتي إلى المدرسة أبدا؟ وإن كانت الكتب تعجبني؟ يسألني عن كلّ شيء...

- وأنت بماذا تجيب حين يسألك عنّي؟

- بأنّك ميّت.

لديّ؛ أبانا المبجّل، ذكرى عذبة عن طفولتي. خشوع أبويّ وفضائل أساتذتي لقّحتني منذ صغري حبّ الله. أحببته عندما كنت طفلا، والتحقت بالمدرسة الإكليريكيّة لّما حانت لحظة تقديم حياتي للقدّيسة الأمّ، الكنيسة. الآن أتذكّر ذلك كأنّ جسمي لم يوجد قطّ، وكأنّ العنصر الوحيد في حياتي كان هو الاستعداد الفطري للتّضحية. بعد ذلك تركتني موجة من التّفاني والآلام على هامش الحياة، وبدأت تتشكّل لديّ روح راضية راغبة في التّملّك البطوليّ للفضائل اللاّهوتيّة والوصول إلى الاقتناع الرّاسخ بالإيمان وبالصّمت الحميميّ للتّأمل.

ربما لذلك -أبانا-، عندما قذف بي إلى الحياة -وهي دائما ملوّثة بالرّشوة والفوضى- فاجأتني وأنا عاجز، ذلك أنّه إلى حدّ اللّحظة التي رأيتها فيها، لم أكن أعرف ما الشّرّ، وأعتقد أنّ الشّرّ نفسه كان على علم بذلك.

صحيح أنّي قبلت، عن طيب خاطر، أن أتوحّد مع الحرب الصليبيّة، ولو كانت ساعتي قد أزفت خلال المواجهة ما كنتم

لتقولوا عنّي، أنتم والمقرّبون منّي، إلاّ الشّيء نفسه الّذي قاله «الأب» عن «الابن»: التّضحية لمن يرغب فيها(*). صحيح أنّي أنا مَن رغب في التّضحية، لكن صحيح أيضا أنّي لم أحدس قطّ بمدى الفظاعة الّتي كانت لحقت بعالم متبجّح مبتذل كذاب آثم وبطوليّ، وبالتّدريج، بدأت أتخلّى عن يقظتي كأنّي كنت أخسرُ المعركة.

الآن يمكنني أن أتّحدث عن كلّ ذلك، وإن كان التّذكّر يكلّفني شيئا كثيرا، لا لأنّ الذّاكرة ذابت، بل بفعل الدّوار الّذي تسبّبه لي طفولتي. أتذكّر تلك السّنوات باعتبارها أوساعًا قضّيتها في مرآة، مثل أمر كان عليّ، لسوء طالعي، أن أتألّم بسببه وأن أتأمّله في الآن ذاته. في هذه الجهة من المرآة كان هنالك التّغاضي والتّظاهر. وفي الجهة الأخرى، كان هناك ما يحدث حقيقة. اليوم، مازال يخيفني ما أتذكّره بخصوص الطّفل الّذي كنته، فمع مرور السّنوات، تفرض قناعة محدّدة نفسها ومفادها أنّني لو لم أكن طفلا لما حدث شيء ممّا كان سيقع.

كان هنالك عالم يسمّى *ألكالا* 177، وكان الطّابق الثّالث، والمنزل الّذي عليه الحرف س بمنزلة قارّتي الأرضيّة. كان هذا الكوكب ينتمي إلى كون شاسع ومراقب، وكان عبارة عن كتلة من المنازل مثلّثة تحدّها شوارع *ألكالا* و*مونطيصا* و*أيالا*. كتلة من المنازل ليس لها أربعة جوانب مثل الكتل الأخرى، ومع ذلك كانت هي عالمي. وبعيدا عنها كانت هنالك مجموعة من الكواكب الأخرى: شارع *طوريخوس* و*غويا* من جهة، وعالم *لافوينتي ديل بيرو* الكئيب وساحة *مانويل بيصرا* من

جهة أخرى، حيث كان يقيم أطفال أكثر فقرا منّا وكان يجمعنا بهم كره متبادَل وغير مبرّر، يجد تفسيره فقط في أنّه في تلك الأيّام كان كل شيء تابعا لراية مّا: الأرصفة، الكرة، الخذروف، الممحاة والأصدقاء. بالإضافة إلى ذلك، أتذكّر وجود سرداب رطب كان أقرب الطّرق إلى مدرسة *ساكرادافاميليا*، وقصرٍ صغير كان يحتلّ زاوية شارعَي *نافاريس وأودونيل*. ربع ساعة من المشي قطعتها، في رفقة أو وحيدا آلاف المرات، ومع ذلك أشعر بأنّ هذه الذّكرى بعيدة عنّي إلى درجة لا أتمكّن معها من إعادة تشكيل تفاصيلها. والحقّ أنّي كنت لا أسعيد الشّعور بأنّي عدتُ إلى عالمي إلاّ عند العودة إلى كتلة المنازل حيث أقيم.

ولكن كان بين كلّ الذّكريات واحدة هي أهمّها على الإطلاق وهي أنّه كان لي أبٌ مختبئ في دولاب.

اليوم أظنّ، أبانا، أنّ ما أثار انتباهي هو شيء يميّزه من الآخرين: كان طفلا حزينا ولكن بجدّيّة لا تناسب سنّه في لعبه دون نزاع، وفي طاعته دون خنوع، وفي رغبته في التّعلّم وافتخاره بما يعرف، وفي صمته... ربّما ذكّرتني طفولته بطفولتي، وأردت أن أستحضر من جديد -عبر ذلك التّلميذ- الطّفل الّذي كنته، فكّرت أنّه قد يكون قسّيسا جيّدا بكنيستنا. يا لَطيبتي!

سجّلت نقاطا أخرى تميّزه: أتذكّر أنّه عندما كان كلّ الأطفال يقفون في الصفّ بطريقة عسكريّة، قبل الخروج من المدرسة، وينشدون في المساء نشيد «الوجه مقابل الشّمس» لتوديع يوم من

التّعلّم البهيج، لم يكن لورينصو يتقاسم روح «السّهم» الّتي كان يظهرها أقرانه. كان يلتزم بالوقفة، ولكنّي ذات يوم اقتربت منه بشكل خفيّ من الخلف واكتشفت باندهاش أنّه كان يرفع يده إلى الأعلى، ويحرّك شفتيه ولكن دون غناء. كنّا نطلب منه أن يعلن حبّه لوطنه فيردّ علينا بصمته.

عاقبته بأن أمنعه من مغادرة السّاحة ما لم يغنّ النّشيد بأكمله، ولكنّه لم يغنّ. ظلّ منتصب القامة بذراع مرفوعة إلى الأعلى دون أن ينطق حتّى بالبيت الأوّل. لا أدري ما الّذي تحكّم فيّ أكثر، هل الغضب من تمرّده أم سعادتي بالفرصة المتاحة لي حتّى أخضع لسلطتي ابنا كافرا في قرن دون إيمان. «أنشد» (أمرته) «إنّه نشيد من يريدون التّضحية بحياتهم من أجل الوطن».

«ابني لا يريد أن يموت من أجل أيّ كان، إنّه يريد أن يعيش من أجلي»، قال صوت ناعم وعذب وراء ظهري. استدرت وكانت هي.

الآن أتبيّن مغزى جملة القسّيس: نظرة امرأة جميلة، ولكن دون فضيلة، تحرق مثل النّار. لقد كنت أجهل حينذاك أنّه بتلك الطّريقة كان يولد هذياني.

أناما الطّفل وظلاّ صامتين في غرفة الأكل المغلّفة بالظّلام. كان الصّمت يشكّل جزءا من حديثهما لأنّهما كانا يخفيان شكواهما معًا. وعلى الرّغم من أنّ نافذة غرفة الأكل المطلّة هي الأخرى على السّاحة كانت مغطّاة بستار غليظ من ثوب قطيفة أزرق، وهو أثر أزمنة أخرى، فقبْل بيع كلّ ما يمكن بيعه، كان هناك صوان برؤوس

محاربين من القرون الوسطى، وخزانة بصحون من الخزف الإنجليزيّ وحوت غريب من بلّور *مورانو* بفم مفتوح، فقد كان الزّوجان يظلاّن في الغرفة المضاءة بالنّور المنبعث من الممرّ، حتّى لا ينتبه أحد إلى أنّ هناك راشدَين يعيشان معًا بهذا المنزل.

كلّما كان ضوء النّهار أقوى من الضّوء المنبعث من الدّاخل، تمكّن *ريكاردو* من أن يتحرّك باطمئنان أكبر عبر المنزل، متجنّبا دومًا أن يقترب من النّوافذ والشّرفات. كانت الغرف الواقعة في آخر البيت تطلّ على شارع *أيالا*، وفي الواجهة كانت هناك قاعة سينما الجزائر الّتي تكون فارغة في الصّباحات. كان ذلك هو الوقت الّذي ينتهزه *ريكاردو*، مع أخذ الاحتياطات اللاّزمة، لكي يتأمّل الشّارع، والنّاس الّذين يعيشون ويعبرون مدينة ذات فضاءات عدّة: محادثات، تحيّات، حالات تقتضي السّرعة وأخرى اختارت الاعتدال، كان يعتبر نفسه معنيّا بها. ولكنّ *ريكاردو* لم يكن يدخل إطلاقا إلى غرفة مضاءة عندما يحلّ الظّلام، كان ينتظر أن يتمّ إطفاء ضوء الممرّ ليذهب إلى الحمّام. وكان يمشي في تكتّم، حتّى إنّه في بعض المرّات كان يحدث أن يخيف زوجته وابنه. كان كلّ شيء معدّا لكي لا يحتلّ مكانا في الفضاء المضاء.

– عليّ أن أفرّ من هنا، أن أحاول العبور إلى فرنسا.

بحثت *إلينا* عن يدَي زوجها فوق المائدة. لم تكن هناك حاجة لتكرّر أنّ الوقت لم يحِنْ بعد، وأنّ عليها أن تخفت حرارة الانتقام، وأنّ حكومة *فيشي* كانت لا تتردّد في طرد أعداد كبيرة من اللاّجئين الإسبان، وأنّ الأمر إذا تعلق بمشروع هروب، فسيهربون مجتمعين،

هما الاثنان والطّفل. وأنّها لن تعود قطّ إلى فراق مَن تبقّى من أسرتها. كانت ابنتها الكبرى إيلينا قد هربت مع شاعر مراهق عند نهاية الحرب ولم يصلهم أيّ خبر عنها. ولم يتجرّأ حتّى على السّؤال إن كانت حيّة.

هربت ابنتهما إلى مدريد، وهي حامل في شهرها الثّامن، قبل انتهاء الحرب بأشهر ذاهبة إثر شاعر في طور التّعلّم كانت هيئته تتغيّر حينما ينشد أشعار كارصيلاصو.

كان الفتى قد نشر بعضَ أشعار في جريدة *«عالم العمّال»* وفي بعض منشورات *«الجيش الشّعبيّ»*، وكان يخشى أن يُعدم بسبب ذلك. اختبآ بمنزل *أولاليا*، خادمة قديمة لوالدي *إلينا*، إلى أن أتيحت لهما فرصة الخروج من مدريد في شاحنة كانت تنقل ماشية إلى *بايادوليد*. لم يتلقّيا أخبارا عنهما وإن كانا قد وجدا عزاء في فكرة أنّهما تمكّنا من العبور إلى منفى ما.

الحديث دوما بصوت خافت يذيب الكلمات بشكل تدريجيّ ويختزل المحادثات إلى تبادل للحركات والنّظرات. والخوف، بما أنّ الصّوت يظلّ حاضرا، يجعل الأصوات غائمة، لأنّ الجانب الغامض من الأشياء لا يمكن التّعبير عنه إلاّ بالصّمت.

كنت ساذجا، يا أبانا، لأنّني كنت أعتقد أنّه كان لكلّ الأشياء اسم، أي أنّها كانت مرتّبة. كنت أظنّ أنّ ذلك كان أساس الانسجام. بالنّسبة إليّ، كان كافيا أن أسمّي الأشياء بأسمائها وأن أبحث عن المشاعر في معجم «التّعليمات المقدّسة» لمعرفة إن كنّا نتحدّث عن الغفران أم عن

الهلاك. لكن هناك منطقة بين بين، أبانا، لا هي موجودة حيث الخطيئة وعقابها، ولا هي موجود حيث الفضيلة وجزاؤها: إذ كان عليّ أن أرسم خريطة سأرسم مجالا واسعا معتّما، وسأتجرّأ، اعتمادا على الحقّ الّذي يمنح للمكتشفين، أن أسمّيه إلينا. إلينا كانت هي أمّ لورينصو. حيث توجد إرادة طيّبة يوجد حبّ حقيقي، وحيث توجد إرادة مغشوشة يوجد حبّ كاذب (*)... كان القدّيس طوماس سيفاجأ بتعقّد خريطتي. هناك جانب مضطرب في كلّ المناظر الّتي لا نستطيع أبدا اختزالها في جغرافيّة بسيطة. أبانا؛ توجد نقطة غامضة لم يتأمّلها آباؤنا: في المساحة الفاصلة بين الرّصين والحقير هناك حقل شاسع غير محسوم يتنازعه الخير والشّر، مجال ملتبس، الآن أعرف ذلك، هو، على التّحديد، ذاك المرتبط بأبناء آدم. أبانا؛ ينبغي أن يكون المرء الابن الأثير لدى الإله حتّى لا يكون مضطرّا إلى اختيار بين الإلهيّ ونقيضه. أنا إنسان، أبانا، ابن الخطيئة الأصليّة واللّعنة التي تستتبعها.

كان منزلي يتوزّع إلى قسمين يفرّقهما ممرّ. وكانت البناية كذلك مقسمة إلى قسمين: المنازل بشرفات مطلّة على شارع *ألكالا*، وكانت تقطن فيها العيّنة الرّاقية من الجيران، والمنازل الأكثر تواضعا وهي المطلّة على شارع *أيالا*. كنّا نحن نسكن بأحد هذه المنازل الأخيرة.

وعلى الرّغم من أنّني أستطيع أن أصف ذلك المنزل شبرا شبرا، فإنّ ما لا أستطيع محوَه من ذاكرتي هو النّوافذ المترصّدة بشكل دائم لحيواتنا، إذ كانت تمثّل الجانب الهشّ من راحتنا الأسريّة عندما كنّا

نتركها مُشرَعة. كان بإمكاني أن أتكلّم بصوت عالٍ فقط مع أمّي. أمّا في اللّيل فكان يتعيّن انتظار خروج أبي من الحجرات لإشعال الضوء. كلّ هذه اللّعبة، لعبة حالات الصّمت والعتمات، كانت تترك مكانها لعنصر ثالث كان يجمّد أيّ وضعيّة حينما يعلن عن نفسه: أزيز المصعد.

منذ لحظة انطلاقه إلى أن يصل إلى شقّتنا في الطّابق الثالث، ينقضي وقت كنّا جميعا قد استبطنّاه وقسناه بشكل دقيق. إذا ما توقّف في الطّابق الثّاني، أو تابع إلى الأعلى، كان كلّ شيء يتواصل من النّقطة الّتي توقّف فيها. وإذا توقف في الطّابق الرّابع، لا يتجمّد الزّمن وحدَه، بل يتحجّر الهواء كذلك، إلى أن نسمع رنين الجرس بأحد المنازل الثّلاثة المجاورة لنا. ومن بين كلّ أنواع الضّجيج وكلّ الأصوات وكلّ تعابير الحياة حولنا، كان لأبي ولأمّي ولي أنا أيضا تصنيف دقيق لتلك الّتي تنذر بخطر مّا، ولتلك الّتي تندرج ضمن الأشياء الرّتيبة. فلا أحد كان يشير إلى حالات الصّمت الّتي يسبّبها المصعد، كما أنّه لا أحد كان يعلّق حين يختبئ أبي، إذا ما طرق أحد الباب، بدولاب يوجد بتجويفة وراء خِوان للزّينة بمائدتين صغيرتين تتوسّطهما مرآة. لم يصنع الدّولاب لأداء الوظيفة الّتي يقوم بها الآن. قبل اندلاع الحرب، واستفادة من اعوجاج يسم غرفة النّوم الّتي تبدو الآن مربّعة، صنع والدي فضاء مثلّثا محتجبا وراء حاجز اسمنتيّ كانت تستند عليه مرآة بإطار من خشب المغني الغامق تصل حتّى الأرض، وكانت في الأصل بابا لدولاب كبير مركّب بتجويفة. وكان يسع إنسانا بشكل مريح، سواء كان جالسا أو واقفا، وكانت مفصلات الباب مخبّأة بسبحة ضخمة بخرزات من الخشب مع

صليب فضّيّ في صورة مسيح مشوّه ولكن بتعبير ألم قويّ إلى درجة أنّني كنت أحرص على ألاّ أظل وحيدا في تلك الغرفة.

بالإضافة إلى سريرين مطليّين بالنيكل بمقدّمتين مزيّنتين بأوراق معدنيّة من الدّالية وزجاج مستطيل، كان هناك دولاب ضخم بثلاثة أقسام وبقمر ضخم في الجزء الأوسط أسعفني بأن أحلم في عالم كان يميني هو يساره والعكس بالعكس. أذكر أنّ أبي عرّف حيرتي بأنّها عبارة عن «وجهات نظر مختلفة لحظة رؤية الأشياء». بهذا الدولاب، كانت تحفظ ملابسي وملابس أمّي. كانت تلصق بها رائحة النفتالين. أمّا ملابس أبي فكانت تخبأ معه في مخبئه. احتفظت برائحة هذا المخبإ وتعرّفت عليه في المطابخ الفقيرة والأظافر المتّسخة، والنّظرات المنهكة، لدى اليائسين من الشّفاء، ولدى من أهانتهم الحياة وفي أكشاك الحراسة بالثّكنات. وفي السّجون لا توجد مثل هذه الرّائحة، هناك رائحة المطهّر ورائحة البرد.

شعرت بأنّي راع، وسعدت بمعرفة أنّه كان في قطيعي ضالّون. كم كان من الصّعب عليّ، أبانا، أن أعرف أنّي كنت أنا الذّئب. مثل بوسوي، قمت بتجميع كلّ معاناتي لأجعلهم يشربون أسرار الإله. ابتدأت في تصيد اللّقاءات.

ولم أعد قطّ إلى إلزام الطّفل بأن يُنشد رغم أنّ تظاهره ما كان ليخفى عليّ. كان التّلاميذ، حين يتفرّقون، يهجمون ناحية بوّابة المدرسة. وكنت أتتبّع سلوك لورينصو، وفي أكثر من مرّة أتيحت

لي فرصة لقاء أمّه. في البداية كنّا نكتفي بالتّحيّة، ورغم أنّها كانت تتهرّب من محادثتي، فقد بدأنا نتبادل، شيئا فشيئا، بعض التّعليقات بخصوص الطّفل، والطّفولة الطّائشة ومهمّة المربّي ومواضيع أخرى كنت أظنّ أنّها ستؤدّي بنا إلى الحديث عن حقائق الرّوح.

كنت ألاحظ: أبانا، أنّني أستمتع حينما أكون إلى جانبها، ولكنّني فكّرت أنّه إذا كان الإله قد أراد منح الإنسان مرافقة مماثلة شبيهة بأوّل مخلوقاته، فكذلك كانت إرادته بأن أحسّ بهذا الرّضا الّذي أحسّه. كان لورينصو يلتزم الصّمت وإن كان من المؤكّد أنّه كان يبحث بنزق عن نظرة أمّه، لكنّي، بعيدا عن ملاحظة التّواطؤات الّتي تجمع بينهما، كان يرضيني ذلك الحبّ الّذي كانت الأمّ تلهمه ابنها. السُّمك كثيفٌ وغامض الكثافة حتّى إنّه يصعب اختراقها، أبانا.

لا أنكر أنّني تعرّفت في إلينا على بعض ملامح حوّاء، ليست حوّاء الرّائعة، النّقية، اللّطيفة، الّتي خلقت لتأسر قلب الرّجل وتصعد معه في تحليق مشترك، بل حوّاء السّاقطة، العارية النّادمة، حوّاء الّتي كانت أوّل من أشاع الشّر. ورغم ذلك، أدرجت ضمن عاداتي مرافقة لورينصو وأمّه خلال جزء من الطّريق الّذي كانا يقطعانه للعودة إلى المنزل. كان هناك شيء في إلينا يحثّني على أن أخوض معركتي الخاصّة. كانت لحظات سعيدة تلك الّتي قضّيتها برتبة شمّاس بتلك المدرسة.

- لن يعود الطّفل إلى المدرسة. قولي لهم إنّه مريض.

- هذا سيثير مزيدا من الشّبهات.

- ولكنّنا لا نستطيع أن نطلب منه أن يتحمّل إلى ما لا نهاية

مضايقاتِ ذلك الرّاهب. علينا أن نُلحقه بمدرسة أخرى، أن نفعل شيئا مّا.

- سنتحمّل معا هذا المتطّفل. لا تقلق.

كانت ممانعات الطّفل كي لا يذهب إلى المدرسة تتّخذ في كلّ صباح أشكالا جديدة. في بعض الأيام كان يتظاهر بأنّه مصاب بسعال جعله يقيء فطوره، وفي أيّام أخرى كان يتظاهر بألم شديد في المعدة ويُبقي رأسَه بين الرّكبتين بينما تحاول الأمّ إلباسه بكلّ لطف، وكان يكتفي، في بعض مرّاتٍ، بأن يبكي باستسلام.

وحين يصبح من البيّن أن لا مناصّ من الذّهاب إلى المدرسة، كان يترك جانبا شكواه ليتبنّى مقاومة سلبيّة كانت تضاعف الوقت المطلوب لخطو خطوة أو تلقّي قبلة، أو حفظ دفتر التّمارين بالمحفظة الجلديّة.

كانت *إلينا*، عند الوصول إلى باب المدرسة، تدفع ابنها بنعومة إلى داخل السّاحة وتهمس في أذنه بجملة متواطئة:

- علينا أن نكون قويّين لمساعدة الأب. إنّه في حاجة إلينا.

بعد ذلك، كانت تظلّ إلى جانب سياج البناية إلى أن تشرع جوقة من أصوات طفوليّة في غناء *«جبال مكسوّة بالثّلج»* أو أيّ نشيد وطنيّ آخر. رتابة الغامض كانت تبدأ مع حنان هذه الأصوات الّتي تمجّد ملاحم مجهولة بكلمات لا تُفهم معانيها. كانت أزمنة ملتبسة ولا أحد كان يفهم ما يقع.

عادت إلينا متدثّرة بمعطف غامق اللّون وياقة من قطيفة واسعة

ومدوّرة حتّى بلغت تقاطع شارعَي *ألكالا* و*كوبا* لتستقلّ المترو الّذي كان من عادتها أن تستعمله قاصدة *أركيبس*، كانت مقاولة *هيليسيس* توجد على بعد أربع كتل من البنايات شركة إسبانيّة-ألمانيّة تابعة للدّولة تقدّم خدماتها لمقاولات أخرى من القطاع العامّ وتعمل في مجال الملاحة الجويّة، ومن هنا كان تكليفها لـ*إلينا* بإنجاز بعض التّرجمات.

هذا العمل، فضلا عن تأمينه لبعض المال يخصّص لمصاريف المنزل، كان يمنح *إلينا* الحقّ في أن تأخذ من إدارة الإمداد والتّموين بجيش الطّيران قطعتين من الخبز الأبيض في الأسبوع كانت تتلقّاهما بفضل بطاقة التّموين الّتي سُجّل عليها اسمها واسم ابنها فقط.

في الحقيقة كان الزّوج هو الّذي يقوم بالترجمة، وكان بهذه الطّريقة يخفّف عن نفسه الإحساسَ بأنّه عالة على زوجته وابنه. وكان استعمال الآلة الكاتبة السوداء من صنف *أوندروود* يقتصر هو الآخر على الأوقات الّتي تكون فيها *إلينا* موجودة بالمنزل. وإذا خرجت، كان ريكاردو يقوم بعمله بشكل يدويّ ويرقنه فيما بعد على الآلة الكاتبة في ثلاث نسخ من ورق الكربون بينما تقوم هي بترتيب المنزل في صمت أو تخيط بيدها لأنّه ما كان ينبغي الجمع بين صوت آلة الخياطة -وكانت من صنف سانخر مصبوغة بالنيكل وموضوعة فوق أرضيّة من الخشب ومستندة إلى كتلة من الحديد المسبوك بشكل حديث- وصوت الآلة الكاتبة.

ولمواجهة متطلّبات المنزل، كانت *إلينا* تعمل بدكّان لمنسوجات نسائيّة تخاط على المقاس بشارع *طوريخوس*، وكان يحتفظ لها بالعمليّات

الّتي تتطلّب قدرا معيّنا من المهارة. وكانت منتوجاتها توصف دوما بأنّها مُتقنَة، ومع ذلك لم تكن السّيّدة *كلوتيلد* ترفع من قيمة أتعابها.

في ذلك اليوم، لمّا عادت إلى المنزل -حاملة دراسة كان ينبغي ترجمتها بشكل مستعجل- قالت لها *ماريا*، حارسة العمارة، إنّ رجل دين جاء لزيارتها وإنّه رغم إخباره بأنّها لم تكن بالمنزل، ألحّ على الصّعود وظل فترة لا بأس بها يدقّ جرس منزلها.

هذا العالم كان مقسّما بوضوح إلى قسمين: القاتم والمضيء. وإلى القسم الأوّل كانت تنتمي المدرسة وأسئلة أساتذتي والصّمت. وإلى القسم الآخر كان ينتمي جزء من حارتي وطريقة أهلها في ربط صِلات بي. ومع المسافة لديّ شعور بأنّني كنت مثل بندول، إذ كان بمقدوري أن أكون في هذه الجهة أو تلك دون أن أرتكب خطأ وذلك بفضل تعليمات المرآة.

كنّا نعيش بالمنزل تواطؤا ثرثارا، وفي الشّارع كنّا نعيش صمتا ضاجّا. وكان عليّ أن أضع جانبا -حين أوجد بالخارج- ما كان أبي يعلّمني في المنزل وأن أسجّل ما هو مهمّ فيما يقع في الخارج حين أوجد في المنزل. وكانت العلاقة ببقية أطفال الحيّ بمنزلة تمرين لحفظ توازنات بشكل جيّد.

ورغم أنّنا كنّا نذهب إلى مدارس مختلفة، فإنّنا كنّا نعيش في كتلة منازلنا دون أن نأتي بشيء من الخارج، وإن تكن ذكريات، أو بالخوف الّذي يولّده فينا أساتذتُنا. في زاوية شارعَي *ألكالا وأيالا*، وهي الزّاوية الحادّة في كتلة منازلنا، كانت توجد عيادة لطبّ الأسنان وهي

عبارة عن متجر دون مساحات عرض، بمصطبتَين صغيرتين من الرّخام في كلتا الواجهتين، واحدة بشارع *ألكالا* كنّا نزهد في استعمالها لأنّنا نعثر بها دوما على مخاط دم المرضى، والأخرى كانت بشارع *أيالا* الّذي كان المنطقة الأقلّ استعمالا للعبور، لذا جعلنا من هذه المصطبة نقطة تجمع أطفال كتلة منازلنا. كنا نلعب ألعاب أطفال لا يملكون لعبا: لعبة عظم الكعب ولعبة الإنقاذ ولعبة السّوط وألعابا أخرى كنّا فيها الضّحايا والجلاّدين، وهي ألعاب كان العقاب فيها دوما مؤلما والجائزة هي إيلام الآخرين. وكان ذلك شكلا آخر لمجاراة الأزمنة الّتي نعيش فيها.

كان جميع الأطفال كثيرا ما يتحدّثون عن آبائهم. وكان لأحدهم -واسمه *تينو*- مظهر جرو كبير وعينان مختلفتا اللّون، وكان فخورا بأبيه لأنّه كان مهيّج ثيران بالإضافة إلى عمله في إحدى الإدارات. وكنّا نستمتع عندما كانت عربةُ الفرقة الكبيرةُ تأتي لأخذ هذا الأب الّذي يظهر بالبوّابة طويل القامة، رصينا بلباسه المثير اللاّمع. وكان *بيبي أميكو*، أحد أفراد مجموعة الزاوية، ب يتباهى باصطياد أبيه للطّيور أيّام الآحاد بـ *باراكويوس ديل خارما*: بشِباك في فصل الصّيف وبمصيدة في فصل الشّتاء. كان منزله الصّغير الفقير مملوءا بأقفاص فيها طيور الكناري الّتي يغطّونها في اللّيل لترتاح من تعب حركتها المتواصلة طَوال النّهار كلّه. وكنّا معجبين بأب *بيبي أميكو* لأنّه كان يملك درّاجة ناريّة صغيرة من نوع *خيليرا* بمحوّل للسّرعة في مخزن البنزين، ومهما تكُن السّرعة الّتي كان يقود بها، فقد كان عليه أن يطلق يدا من المقود لتحويل السّرعة، وكان هذا يبدو لنا أمرا باهرا

خاصّة أنّه كان أعرج وله إضافة ضخمة في الحذاء الأيمن.

ومازلت أذكر الأخوَين *شابوري* اللّذيْن كانت لهما اثنتا عشرة بقرة في السّاحة الدّاخليّة للبناية تسمح بتأمين احتياجات الحليب للجيران الّذين يأتون للشّراء بأوعية من الأليمنيوم. وكان الأب يحلب البقرات، وفي المرّات القليلة الّتي سمح لنا بالمرور لرؤيتها، كنّا جميعا نفكر في الشّجاعة الّتي يتطلّبها حلب تلك الحيوانات البالغة الضّخامة والتّجهّم.

بإمكاني أن أعدّ الأسباب الّتي جعلتنا جميعا نعجب بآباء القاطنين بكتلة منازلنا. وكان هذا ردّ الاعتبار الوحيد الّذي تلقّيته عندما شاع خبر أنّ أبي لم يكن ميّتا، وأنّه إنّما كان يرعاني من داخل دولاب.

الآن، أبانا، بقي لي حطام الذّاكرة والتّبريرات الحقيرة لسلوكي. عليّ أن أبدأ بالقول إنّي ما كنت أعرف سببا لشروعي في ملاحقة إلينا عندما كانت تترك الطّفل بالمدرسة. لو أنّ أحدا سألني حينذاك لكان تبريري هو أنّ شيئا غير واضح كان يلفّ تلك المرأة. ولتأكيد هذه الإجابة، لجأت إلى ملازم ثان مؤقّت كان مكلّفا بمهمّة مأمور بوزارة الدّاخلية. وعن طريقه علمت أنّ ريكاردو دوماصو -زوجها- كان مدرّسا للأدب بمعهد بياتريسكاليندو، ومسجّل على أنّه في حالة فرار. وفي سنة 1937، كان أحدَ منظّمي المؤتمر الدّوليّ للكتّاب المناهضين للفاشيّة حيث أعلن تبنّيه الفكرَ الماسونيّ وتبجّح بعلاقة الصّداقة الّتي تربطه بالشّيوعيّ أندريه مالرو والرّوسيّ إليا إيهريمبرغ. وكان عضوا باللّجنة الّتي أرسلت في سبتمبر 1936 من طرف الحكومة الشّيوعيّة

إلى بيلموث لتغيير قرارات عدم التّدخل المتّخذة من طرف فيدرالية النّقابات الإنجليزيّة. ومعلومات قليلة أخرى كانت متوفّرة عنه عدَا أنّه كان بالفعل متزوّجا بـ إلينا وكان له ابنان: إلينا المولودة سنة 1922 ولورينصو الّذي بلغ سبع سنوات. وليس هناك دليل رسميّ على أنّه وقع تعميد أحدهما. توجّهت إلى الأبرشية المعنيّة، أبرشية كوفادونكا الواقعة بساحة مانويل بيصيرا، ولم أعثر على شهادة التّعميد لأيّ من الولدين. لقد وُلدا معًا قبل الانقلاب، ومن ثمّ لم يكن هنالك أيّ تفسير، بما أنّ هذه الأبرشية، ولمعجزة مّا، لم يقع إغلاقها ولم تتعرّض لأذى خلال ثلاث سنوات من الحرب المتواصلة. كما فوجئت بأنّهم لم يشيروا إلى الأخت الكبرى الّتي كانت قد اختفت من حياتهم رغم صغر سنّها.

وقد يذهب إلى الظنّ أنّ ذكرياتي توجد على هامش ذاكرة الخوف، غير أنّه، وبالرّغم من مجهودات والدي كي لا أشارك في تلك الشّعائر المتّصلة بتوجّسات مفروضة، كنت أنا أيضا أخشى أن تتمزّق الفقاعة الّتي كنّا نخفي بداخلها حياتنا اليوميّة المألوفة، وأن يتمكّن الخارج من اختراق حناننا الصّامت وسعادتنا المخبّأة. أتذكّر أنّنا كنّا ذات يوم نلعب لعبة *بارتشيس*، وبما أنّنا كنّا ثلاثة لاعبين فقط فقد كان أبواي يحرصان على أن يكون ذلك امتيازا غير معلن لي بأن أحتلّ الحيّز الثّالث في رقعة اللّعب ممّا يجعل قِطعي في مأمن من الملاحقة، وفي المقابل كنت أجد قِطعهما في متناولي. وكان عليّ أن ألعب عندما يشرع المصعد في التّحرّك. حدث ذلك ليلا، وكانت البوّابة مقفلة، ولم يكن هناك من يجرؤ على السّهر. ويبدو أن لا أحد يعير اهتماما لصرير

المصعد المتمايل، ولكنّ كلّ شيء توقّف عند رباطة جأش كانت تبدو كأنّها لا تبالي بما نسمع وإن كانت تبرّر كلّ هذا الصّمت الّذي ساد.

كان الوقت متأخّرا واليوم يوم سبت. توقّف المصعد في الطّابق الثّالث. وتحوّل الصّمت إلى سكينة، والدّلو الصغير والزّهر ظلاّ معلّقين في الهواء إلى أن رنّ الجرس.

بدأت حولي فوضى مخطّط لها. توجّه أبي بسرعة إلى دولابه، وأزالت أمّي قطع لعبه من طاولة اللّعب وأنامتني، وكنت قد ارتديت ثياب نومي، بأحد أسرّة غرفة نومها.

- مهما يقع، تظاهر بالنّوم، (قالت لي).

أعادت وضع السّبحة الّتي كانت تخفي مفصلات الدّولاب حيث كان يختفي أبي، وبعد أن تأكّدت أنّ كلّ شيء كان في مكانه، ذهبت لتفتح الباب الّذي كان يطرقه الزّائر غير اللّبق.

كانت الغرفة قد أظلمت، وعندما فتحت أمّي الباب للزّائرين، عاد الصّمت كأن لا أحد أفزعها، غير أنّي تذكّرت في تلك اللّحظة أنّنا، بسبب الاستعجال، لم نخبّئ الأوراق الموضوعة فوق طاولة أبي. الآن أحكي هذا كأنّي أحكي عن شيطنات طفل آخر وأجد من المستحيل -لأنّ الخوف لا كلمات مرادفة له- أن أصف المجهود الخارق الّذي يعنيه بالنّسبة إليّ ذلك الطّفل الّذي أحتفظ به في الذّاكرة: فتح باب غرفة النّوم مع الحرص على عدم إحداث أيّ ضجيج والذّهاب في الظّلام حتّى طاولة العمل حيث كانت الأوراق الّتي كان يستعملها أبي عندما يترجم، وجمعها في صمت في الوقت الّذي كنت أسمع فيه

أصواتا جافّة تشتم أمّي في الجهة الأخرى من الممرّ. وفي الأخير أعود إلى غرفة النّوم وأرمي الأوراق داخل الدّولاب حيث كان يختفي أبي رفقة صمته. وما حزّ في نفسي بعد ذلك هو عدم تمكّني من أن أحكي لأصدقائي عن براعتي الخارقة.

ومنذ الصّيف الّذي انتهت فيه الحرب، لم تعد الشّرطة إلى تفتيش منزل *إلينا*، ولكن خلال ليلة كانت الرّتابة الأسريّة تخفي فيها المذاق الملازم للخوف، قدم أربعة رجال محدثين ضجيجا يترأّسهم أصغرهم سنّا بقميص أزرق ومعطف من نسيج رقيق، يضع يده على خاصرته ليطرح الأسئلة ويمسح شعره اللّين وهو ينتظر الجواب. كان رجال الشّرطة الثّلاثة الآخرون يريدون تقديم صورة عن أنفسهم باعتبارهم صارمين، في حين كان الشّاب يرى في نفسه رمز التّأنّق.

أوصلوا *إلينا* حتّى المطبخ دفعًا، وتابع اثنان منهم التّقدّم عبر الممرّ في حين ظلّ إلى جانبها الشّابّ وشرطيّ آخر. وضع المسدّس فوق طاولة الرّخام، وأخذ في استجواب لا منطق له. كانت *إلينا* تكاد لا تسمعه وتجيب بمقاطع ليست دائما مناسبة للأسئلة لأنّ كلّ حواسّها كانت تتابع الشّرطيين اللّذين كانا يفتّشان المنزل.

وعن أسئلة من قبيل ما إذا كان صحيحا أنّ زوجها كان مختبئا بمدريد، أو أنّه مات، أو كان على علاقة براهب، أو أنّ ابنتها كانت تمارس الدّعارة ببرشلونة ولا تريد تجربة حسّيّة عنيفة مع رجال حقيقيّين، أو أنّ زوجها قتل راهبات خلال الحرب، أو أنّها كانت منتمية إلى الحركة الوطنيّة... ردّت بالإيجاب.

غير أنّها أجابت بالنّفي عندما سألوها إن كانت تعرف أنّ زوجها كان معتقلا بسلمنكا وأنّه كان يعيش مع مومس بجنوب فرنسا، وأنّها كانت منتمية إلى الحركة الوطنيّة، وأنّها كانت تعرف من هو والد ابنها أو أنّه كانت لها اتّصالات بالإمبراطوريّة البريطانيّة أو أنّها تفكّر في الهروب إلى روسيا لتلتقي بزوجها الّذي كان أحد أعيان الجيش الأحمر.

هذا الاستجواب الّذي كان بالإمكان أن يتّخذ، شأنه في ذلك الإجابات، منحى مغايرا لو أنّه تمّ طرحه بترتيب آخر، توقّف عندما ظهر أحد الشّرطيين بباب المطبخ وهو يجرّ *لورينصو* من أذنه. كان الطّفل دون حذاء ويمشي على أطراف أصابعه كأنّه يريد أن يطير ليخفّف الألم.

- دع عنك ولدي. (صرخت *إلينا* وقد اندفعت لتأخذ ابنها بين ذراعيها).

ومنذ تلك اللّحظة دار الحديث بين رجال الشّرطة الأربعة على شكل لعبة من البذاءات والوقاحات قيلت باستهتار وهم يتجوّلون بالمنزل عابثين بالدّواليب والكتب وأواني المطبخ ولُعب *لورينصو* وبكلّ ما كان يبدو أنّه يحتلّ مكانا مناسبا. لكن برغم كلّ الوقت الّذي قضّوه في غرفة النّوم معلّقين على الإمكانيات اللاّمتناهية للسّعادة الّتي يمكن أن تمنحهم إيّاها تلك الأسرة لو أنّ *إلينا* كانت بالفعل امرأة، لم يكتشفوا أنّه كانت وراء سبحة من خرز خشبيّ مفاصلُ باب تفتح على دولاب يختبئ فيه رجل خائف من قدرته على حبس دموعه.

الحقيقة، يا أبانا، أنّه يروق لي أن أراها تتحرّك بين النّاس، وهي تمشي خجولة وديعة نحو منزلها بخطو سريع لامرأة جادّة، تحايلت في مناسبتين حتّى ألقاها، ودعوتها إلى شرفة مقهى كان يقدّم شعيرا بالحليب وحلويّات. وكان كشفي عن أفكاري يلقى دومًا استجابةً ملائمة من طرفها. وكان كلّ شيء يبدو متناغما، وكنّا مثل ملاّكين قادمين من جوقتين مختلفتين. ولم تكن بيننا أيّة نقاط التقاء وعلى هذا تأسّس تناغمنا: أنا كنت أفكّر، وهي كانت تحسّ، وكنت أحلّل، وكانت تتألّم من المرحلة المضطربة الّتي قُدّر لها أن تعيش فيها.

يفكّر الرّجل برأسه لينزل الفكر إلى القلب حيث يعثر على القوّة، بينما تتأمّل المرأة بقلبها لتستعيد غريزتها نور العقل. الآن أعرف أن طرائقهنّ لتوصيل الحقيقة مختلفة جدّا عن طرائقنا وكذا أشكال الوصول إليها. كنت أحاول كشف لغزها، وهي تحاول أن تقنعني بحسن طويّتها. وإذا كان من نصيب الرّجل الأصوات اللاّمعة والفخمة، فإنّ المرأة تناسبها النّبرات الخافتة، اللّطيفة، والمحتشمة انسجاما مع نظام الكون.

كلّ هذا كان يخطر ببالي، أبانا، لتبرير أجوبتها غير الحاسمة، ممّا يقوّي في كلّ مرّة وضعَ إلينا باعتبارها شيئا مرغوبا فيه. قرّرت أن أذهب نحوها بقوّة أكبر وأن أبحث عن أن أكون قريبا منها.

- توقّف عن الشّرب، ريكاردو، إنّك تقتل نفسك.

- الشّرب هو ما يقتلني؟ لا تتفوّهي بحماقات.

- نحن في حاجة إلى أن نكون في كامل وعينا لكي...

- لنعيش كأنّنا غير موجودين. أليس كذلك؟

- لا، لكي نعيش معًا ونقاوم الوقت الّذي يلزم. لا يعجبني أن يراك *لورينصو* حزينا إلى هذه الدّرجة، من فضلك...

وبحركة سريعة أخذت الزّجاجة من فوق المائدة وقصدت المطبخ لوضعها في الثّلاّجة. كان المنزل مظلما وكان ضوءٌ خافت يتيح فرصةً لتخمين تخطيطات الأشياء. ورغم أنّها تعرف المنزل كما تعرف راحة يدها، فقد كانت هناك لحظات تضطرّ فيها إلى تحسّس طريقها باللّمس. وعندما عادت *إلينا* إلى غرفة الأكل، كان الضّوء مشتعلا، وكان زوجها يطلّ من النّافذة المفتوحة على مصراعيها. ورغم البرد، كانت كلّ النّوافذ مفتوحة تقريبا حتّى لا تتخلّل رائحة الزّبدة المحروقة والقرنبيط المتحلّل فقرَهم. كانت العاشرة ليلا وكان *لورينصو* قد نام منذ وقت.

ارتمت على *ريكاردو* بقوّة جعلتها تطرحه أرضا كأنّها تريد أن تحميه من لسان نار. وهكذا ظلاّ -وهي ملتفّة حوله بجسدها- إلى أن تبيّن لهما أنّ أصواتا أخرى وحالات صمت أخرى تشير إلى عدم انتباهها إلى ما وقع. لا شيء أثّر في البرد.

ودون أن يبديا أيّ حركة، أزاحا برهافة الهواءَ الّذي يفصل بين جسديهما، وتشابكا إلى أن حجب أحدهما الآخر عن اللّيل ونظراته. مختبئين الواحد في الآخر، وتحدّثا عن الخوف وعن *لورينصو* وشجاعته المتواطئة، كما تحدّثا عن *إلينا* الهاربة وعن ضرورة عدم الاستسلام للقنوط.

- ليس الأمر كذلك، يا *إلينا*، الأمر بمنزلة دهشة. وليس بسبب خسران حرب كانت محسومة يوم ابتدأت إنّما الأمر شيء آخر.

- ما هو؟

- أن يريد أحدهم قتلي لا بسبب أفعالي بل بسبب أفكاري... والأدهى من ذلك، أنّني إذا ما أردت أن أظلّ متشبّثا بأفكاري يتعين عليّ أن أتمنّى موت آخرين بسبب أفكارهم. أنا لا أريد أن يضطرّ أبناؤنا إلى القتل أو الموت بسبب أفكارهم.

توقّف عند تنهيدة صامتة ومخنوقة خرجت من حلقه، فبدأت المرأة تلفّها بالشّفتين، باحثة بلسانها عن عيني زوجها وضاغطة بالشّفتين لصدّ البكاء. كانت تمتصّ ألم زوجها وحنقه لحظة بلحظة.

نهضت *إلينا* وأغلقت النّافذة وأطفأت الضّوء وهي تتحسّس طريقها، اقتربت من *ريكاردو* الّذي كان لايزال جامدا في مكانه. أخذت يديه، وبلطف جعلته ينهض، ودون أن تطلق يديها أخذته حتّى غرفة النّوم بعذوبة وبدأت بقُبل ومداعبات على الوجه المبلّل بالدّموع وختمتها بأن أزالت عنه كل ثيابه بالرّقّة نفسها الّتي كانت تُلبس بها ابنها. كان عليها أن تعيد تشكيل طريق المداعبات كما في الأيام الخوالي، وأن تلهث بشكل خافت لتستعيد العواطف المدفونة في زوايا الخوف. عملت في البدء على أن تدفع يدَي ريكاردو للبحث عن أسرارها وانتهت راكعة لتنادي بشفتيها على الصّلابة المختفيّة تحت الأحزان. عندما تلقّت الجواب، على الأرض لتجنّب صرير السّرير، انغلقا أحدهما على الآخر في تراكم من حالات التّملّك

الّتي حدثت دون لهاث أو صراخ ودون قول «*أحبّك*»، وذلك قصد مواصلة الحفاظ على سرّ الحياة...

من الأمور الّتي تثير دهشتي بشكل كبير، كوننا جميعا، دون أن نرغب في ذلك، كانت لدينا ذكريات حول الحرب الأهليّة: حصار مدريد، هول القنابل والقذائف. ومع ذلك فنحن لا نتحدّث عنه مطلقا.

وفي المدرسة، أسماء مثل *فرانكو*، *خوسي أنطونيو بريمودي ريفيرا*، الكتائب، الحركة، كانت قد ظهرت بشكل فجئيّ، نزلت من السّماء لتقيم نظاما بدلا من هذه الفوضى. لتعيد إلى البشر المجد والرصانة. ولم يكن هنالك ضحايا، كان هناك أبطال، ولم يكن هنالك موتى، بل كان هناك الّذين سقطوا من أجل الإله ومن أجل إسبانيا، ولم تكن هنالك حرب، لأنّ النّصر، حين كان يكتب بحروف التّاج، كان أقرب إلى قوّة الجاذبيّة منه إلى حلّ نزاع بين البشر.

وكان ضمن مجموعة الأصدقاء الّذين كانوا يشكّلون جزءا من ذلك العالم، واحد يُدعى *خافيير رويثطابيادو*، كان يرتدي أحيانا لباس السّهم. وكان عمره ثماني سنوات ويبدو كرجل صغير يتحدّث بصوت غليظ وخصلة شعر لا تتحرّك بفعل ملمّع الشّعر وكانت طريقة لباسه تعكس الرّفاه الّذي تعيشه أسرته. كان منزله دافئا ومضيافا، وحتّى يكرّس زعامته كان يستمدّ السّند من أخيه الأكبر، كارلوس، الّذي كان يحكي لنا قصص رعب بشغف في الوقفات الوصفيّة، ومهارة في خلق المواقف المخيفة، ومازلت إلى اليوم أعجب

من قدرته الفائقة على ارتجال الحكايات.

كان يبتدئ قصّته دوما وهو يحدّثنا عن وقائع رهيبة كان قد شهدها على ضوء شمعة كانت تمنحه ملمحا شبحيّا وهو يتحدّث بإيقاع مضمّنا كلامه تناغمات صوتيّة تثير الرّعشة.

كانت شخصيّاته الرّئيسيّة دوما مجموعة من الأطفال في عمرنا ملاحقين من طرف جيش من المصابين بالبرص يتحرّكون ببطء، باعثين رسائل تهديد وباحثين عن أحشائنا كأنّها إمكانيّتهم الوحيدة للبقاء على قيد الحياة. ولم يكن البرص مرضا معديا، كان مرضا يصيب الرّوح. وخطورته لا تجد قوّتها في إمكانيّة أن يعدي ولكن في شراهته لأكل اللّحم.

تردّدت كثيرا قبل أن أكتب هذه الرسالة. والآن لديّ رغبة في عدم إنهائها. لكنّني أريد أن أحكي الحقيقة لأتمكّن من معرفتها، لأنّ الحقيقة تهرب منّي كما يفعل ماء المطر بين أصابع الغريق.

ما أعجز عن العثور عليه، أبانا، هو النّدم، فلا أحد علّمني أن أميّز الحبّ من الشّهوة، وكنت أظنّ أنّي بدأت أتعلّق بها. كانت الطّبيعة، في نظري، هي علّة الزّلزال الّذي كان يحدث في روحي، وإن كان هذا قد حدث فيما بعد.

لم يفارقني الخوف من مرضى البرص خلال سنوات عديدة، وما كان في خيال أطفال آخرين غولا أو عفريتا أو ساحرات ذوات

مكنسات، كان بالنّسبة إليّ يتجسّد في تلك الكائنات المدمية الّتي تمشي ببطء دون توقّف وتتبعني لتأكل أحشائي وهي تفقد مِزقا من لحمها.

وبقدر ما كانت الشّهور تمرّ، كان *ريكاردو* يمسي أكثر انطواء على نفسه. وكانت *إيلينا* تلاحظ أنّه يتأثّر حين تحكي له عمّا يقع خارج تلك الجدران، وبدأت تتحاشى التّعليق على ما كانت عليه الحياة فيما وراء باب المنزل.

وكان يهيجه أن تكون المدينة قد أعادت خلق رتابتها بعد ثلاث سنوات من الحصار، وأن يتصرّف الجميع كأنّه لم يخسر معركة، وأن لا يمكّن تواطؤ أصدقائه القدامى في رفض الهزيمة بل في مسح الصّفحة والبدء من جديد.

وشيئا فشيئا بدأ يصغر وينحني رأسه. واختفى الرّجل الّذي كان يعتني بنفسه في أيّام معدودات، إذ توقّف عن حلاقة ذقنه، مهملا حالته، تحت وطأة غياب الرّغبة الرّصاصيّ وحالات شرود لا يمكن اختراقها.

ونادرا ما كان يظهر -من جديد - الرّجل المستقيم الحازم الّذي أسر *إلينا* في أزمنة كان للكلام فيها أهميّة لأنّ بناء الفكر كان يتمّ به، ونادرا ما كان يبرز المفكّر الّذي كان يبحث عن السّبيل لجعل مشروع جماعيّ قابلا للإنجاز، وذاك المثقّف المقتنع بأنّ ما هو إنسانيّ هو الشّيء الوحيد الأساسيّ. بدأت الكفّة تميل إلى جهة الرّجل السّاكن،

السّاعي بإطّراد إلى أن يتحوّل إلى كائن غير مرئيّ، إلى أن يحتلّ في كلّ مرة مكانا أصغر في الفضاء. وحتّى عندما كان يوجد وحده بالمنزل، كان يظلّ ساعات وساعات في الدّولاب.

وحده حنان *إيلينا* الفائق واقتراحاتُها الرّقيقة تحفّزه إلى أن يفعل هذا أو ذاك: إلحاحها على أن يُتمّ ترجمة *ميلتون* الّتي بدأها في عزّ الحرب أو أن ينقل إلى الورق آراءه حول الابتذال الشّعريّ عند الشّاعر لـ*لوبي دي فيكا* وآلاف الطّلبات الأخرى حتّى يعود الأستاذَ الّذي كان، وحده يستطيع ردّ البريق إلى عينين مثقلتين بالظّلمة، ويزداد ابتعادهما عن المشهد العامّ.

فقط عند وجود *لورينصو* بالمنزل، كان يظهر من جديد الرّجل ذو العزيمة، القادر على إغراء طفل تكسوه الهموم وتسليتِه.

كنت أتجنّب أن أدعو أحدا إلى المنزل حتّى لا يضطرّ أبي إلى الاختباء في الدّولاب، غير أنّ أمّي، عنّ حب أو بشكل مقصود، كانت ترتّب لي سلسلة من اللّقاءات مع أصدقائي بمنزلنا. وحين كان يحدث هذا، كان أبي يغلق على نفسه في دولابه مع قنديل غاز وبضع كتب إلى أن يذهب الجميع. ولحسن الحظّ، فكلّ من حارسة العمارة الدّميمة البذيئة وزوجها *كاسطو* عامل البناء المسلول الشّاحب كانا ينفجران غضبا كلّما رأيا طفلا ليس من أبناء العمارة الّتي يحرسانها بغيرة كبيرة، وهو ما كان يحول دون الزّيارات غير المرغوب فيها لأصدقائي والارتباك الّذي كان يخلّفه قرع جرس الباب.

لا يمكنني أن أنسى لقاءً كان بمنزلنا مرّة شعر فيه أبي بمغص واضطرّ إلى الذّهاب إلى الحمّام على وجه السّرعة. ورغم أنّ باب غرفة الأكل كان مغلقا، فإنّ أحد الأطفال رأى ظلاّ يعبر الممرّ. ولتتخلّص أمّي من المأزق، وجدت في الحديث عن شبح كان يأتي من وقت إلى آخر لزيارتنا حلاّ لتلك الوضعيّة... جمّد التّفسيرُ الدّمَ في عروق الحاضرين، لكنّنا كنّا على درجة من الاستعداد لتقبّل الخوف، وعلى درجة من التّعوّد على صور الجحيم، وعلى دراية جيّدة بمعنى النّحس وساكنيه، وهو ما جعل الجميعَ يقتنعون بالتّفسير. تابعنا لعبة الطّاولة وبعد فترة وجيزة سمع صوت حوض ماء المرحاض الّذي كان يحدث دويّا ينتهي بصفير يشبه هبوب الرّيح وهو يمتلئ من جديد. شلّت الدّهشة والخوف حركة الجميع، غير أنّ أمّي اكتفت بالتّعليق بنبرة طبيعيّة: «هذا الشّبح يفعل الشّيء نفسه دومًا، يطلق الماء ويذهب». وخيّم إحساس بالارتياح على أصدقائي وتابعنا اللّعب.

ما هو متعال يتضمّن قدرا من الحنان لا يمكن تحديده ولا تصله الكآبة (*)، كما يقول الشّاعر، وهو هبة الدّموع الرّائعة: دموع رأيتها تزهر- أبانا- في عينَي إلينا ذات يوم تبعتها فيه، بعد أن أوصلت ابنها إلى المدرسة، حتّى منزل بشارع طوريخوس اقتحمته بشكل فجئيّ مدفوعا بفضول شرّير (أعترف بذلك). وشرعت في ملاحقتها لا قصد مراقبتها بل لأستمتع برؤيتها لأنّي إلى الآن -بعد أن أخمدت الأحداث الّتي ما كان بالإمكان تجنّبها لهب النار(*)- مازال قلبي ينخلع حينما أتذكّر إيقاع مشيتها المتمهّلة.

دخلت بناية ببوّابة مهيبة وأسعفني الوقت لمعرفة توقّف المصعد في الطّابق الرّابع. كان الأمر يتعلّق بورشة لخياطة ملابس أنثويّة داخليّة كانت تهيّأ بطلب من نساء شبقات يشكّلن -من دون شكّ- الحلقة الأكثر مجونا في مجتمعنا. كانت إلينا تتلقّى مقابلا ماديّا عن كلّ وحدة تخيطها لهذه الورشة، وينبغي أن أعترف بأنّني شعرت ببعض الغضب عندما رأيت تلك اليدين اللّتين خلقتا لمداعبة الأبناء والأقرباء تضيعان في إنجاز تلك الأعمال التّافهة. ولا أستطيع أن أفسّر لماذا، وأنا محاط بتلك الدمّى الوقحة الّتي كانت تقاس عليها الثّياب، أمسكت يديها بين يدي وأخذتهما حتّى لامسا وجهي وأنا أهمس له إنّ الله خلقهما لمهامّ أكثر رفعة. ولم تبعدهما -أبانا- واعتقدت أنّها كانت تفهم مرادي. تركتهما ثابتتين فوق وجهي وشعرت بنسيم ملمسهما وهو يغزو اسمنتَ اختياري الكهنوتيّ، مغيّرا ملامح مشروعي وجاعلا من كوني شمّاسا أمرا غير واضح.

وعندما نظرت إلى عينيها، وسط جمود الخيّاطات الحاضرات اللّواتي كان لباسي يولّد فيهنّ شعورا باحترام عميق، وجدتها تبكي في صمت. علامَ كانت نادمة أبانا؟ أم أنّها كانت، كما ظننت في تلك اللّحظة، متأثّرة إلى حدّ كبير بعاطفتي؟ الآن أعرف -أبانا- أنّ دموعها لم يكن مردّها إلى شيء من ذلك، لكن، يا لحسرتي.كان يجب أن يموت إنسان لأفهم.

نطقت متلعثما بذريعةٍ ما همّني أن تكون تافهة لأبرّر وجودي بذلك المنزل ورجعت إلى المدرسة راضيا عن نفسي إذ أنّني قلت لـ إلينا -على طريقتي-: «إنّني كنت مستعدا لحمايتها. وإن لم تقبل

فستكون مغفّلة مثل التّمثال الّذي يرفض قاعدته».

- هل تحبّ أمّك كثيرا؟

هزّ *لورينصو* رأسه موافقا. وداعب الرّاهب *سالفادور* الطّفل علامة على الاستحسان. مائة من التّلاميذ -على الأقل- كانوا يطوفون بالسّاحة مشكّلين حشدا ضاجّا تحكمه فوضى كانوا هم الوحيدين القادرين على فهمها. وبما أنّ الفضاء لم يكن كافيا لهم جميعا، فقد كانت المجموعات هي الّتي تتداخل وليس الألعاب، إذ أنّهم كانوا كلّهم يعرفون مع من وضدّ من يلعبون.

- ألا تتلقّون رسائل من أبيك؟

هزّ *لورينصو* رأسه إشارةً بالنّفي.

- لماذا؟

- لأنه ميّت.

داعب الرّاهب *سالفادور* مرّة أخرى قفا الطّفل وهو يتحدّث عن مشيئة الرّبّ وعن مقاصده الّتي لا يمكن الكشف عنها وأشياء أخرى لم يفهمها *لورينصو*.

- ولا أحد يساعد أمّك؟

- أحيانا تأتي السّيّدة *أولاليا*. ولكنّها الآن في السّجن.

- ولماذا هي في السّجن؟

- لأنّها تلاعبت بأسعار الخبز.

أخيرا قال شيئا صحيحا. كانت *أولاليا* امرأة سمينة، عريضة

طويلة وقد رسمت سنواتها الّتي تجاوزت السّتين على وجهها تجاعيدَ متناسقة تمنح نظرتها الزّرقاء بريق جمرة وتجعل ابتسامتها تشبه نقشًا على جوهرة.

كانت تكسب قوت يومها بصعوبة من عملها خادمةً، وكان نظام المنازل الّتي تشتغل فيها من الصّرامة بحيث كانت تتمكّن من العمل في بعض المساءات فحسب.

عندما كان الجوع يتجاوز قدرتها على المقاومة، كانت تطلب من *إلينا* قطعة من الخبز الأبيض لبيعها بسوق التّموين الّذي كان يوجد بشارع *هيرموسيا*.

كانت *إلينا* الّتي تعرف *أولاليا* -منذ أن كانت طفلة لأنّها عملت دوما في منزل أبويها- تعطيها الخبز وتلتزم بزيارتها في سجن النّساء بـ*لاس فينطاس*.

كانت *أولاليا*، بتنّورتها القروسطيّة وشعرها الأبيض، تتزيّن ليراها الحرّاس، وكان كل احتجاز يعني وجبتين يوميّتين خلال عشرة أيّام أو خمسة عشر يوما وذلك بحسب درجة الوقاحة الّتي تبديها إزاء حزم المفتّش.

أيّام الخميس في السّادسة، كان *لورينصو* و*إلينا* يقفان في الرّصيف المقابل لسجن النّساء، وكان منديل يهتزّ بين شبّاك وكوّة لإطلاق الأسلحة بمنزلة الإشارة إلى أن *أولاليا* كانت بصدد استعادة قواها لتواصل الحياة بعد خروجها.

كانت عينا *لورينصو* مركّزتين على مجموعة من الأطفال يلعبون

الكرة، وبحركة تلطّف، ترك الرّاهب *سالفادور* الطّفلَ يلتحق بأقرانه، وظلّ يتتبّع كيف اندمج في لعبة لا يفهم قوانينها سوى اللاّعبين. لا يعرف لماذا، لكنّ إجابات الطّفل أفعمته سرورا إلى درجة جعلته يتغاضى عن معاقبة طفل بلا أسنان بصق في وجه زميل له كان قد انتزع منه دوامّة.

الصّرخات، ولعب الأطفال المتحمّسُ، والشّمس الّتي تخلق جوّا شفّافا، وسلامة الطّويّة والنّظام الطّبيعي لكلّ شيء، والزّمن وقد سطّر في مواقيت، والقطيع ورعاة التّراتبيّة... كلّ هذا أرجع إلى الحاضر المذاقَ الّذي كان له من قبلُ عندما لم يكن بعد منتصرا بل صانعا للنّصر. شعر الرّاهب بأنّه كمن انتقل من وضعيّة حرمان من الميراث إلى وضعيّة ورِث فيها الأرض بأكملها. وخطرت بباله هذه الفكرة: *«سيكون العياء قد لحق بهم»*. ودون مقدّمات، عبر تلك السّاحة متمتما: *لا نرغب في المزيد*(*).

في *ألكالا*، بالمنزل رقم 179، كان يعيش شخص يدعو إلى القلق: إنّه *سيلفينين*. كان أكبر سنّا من بقيّة أعضاء المجموعة تقريبا، لكنّ فارق السّن لم يكن ليبرّر نفوره منّا. كان ذا شخصيّة صلبة، مائلا دومًا نحو الأمام إلى درجة كان يبدو معها كأنّه يمشي ليحافظ على توازنه، ونادرا ما كان يندمج مع مجموعتنا. وكان أبوه رجلا لا يثير الانتباه لولا رفقة زوجته الّتي تنبّه إلى حضوره، رغم أنّها لم تتميّز بجمال خاصّ، وإن كانت نموذجا للوداعة. ومازلت أذكرها كملجإ

صامت إزاء تجهّم الرّاشدين المتحكّمين حينذاك في عالمنا. كانت تكتفي بالتّحيّة في حين أنّ زوجها لم يكن يكلّف نفسه عناء القيام بذلك من فرط خسّته.

كان لـ *سيلفينين* جدّيّةُ أبيه ولون العينين الزّرقاوين وابتسامة أمّه: وكان يفرض علينا احترامه. أتذكّر أنّنا كنّا في إحدى المناسبات مجتمعين كلّنا حول مصطبة عيادة الأسنان المؤدّية إلى شارع *أيالا*، فمرّ أمامنا قسّ من كنيسة *كوفادونغا*، كائن قميء ومتّسخ، بوَرم في الجبهة وشفتين مرتخيتين ودائمتَي البلل ترشان ريقا عندما يلقي خُطبه ضدّ الخطيئة في قدّاس الأحد، وكان يجمع رغوة كثيفة بيضاء بشدقيْه وهو يهمهم بصلواته. وامتثالا لما تعلّمناه في المدرسة، سارعنا -جميعنا- إلى تقبيل يده الّتي تركها -دون أن يتوقّف- بفتور تحت رحمة احترامنا المجامل. باستثناء *سيلفينين* الّذي سألنا عندما اجتمعت المجموعة من جديد: *«هل تظنّون أنّ الرّهبان لا يغسلون مؤخّراتهم؟»*.

ضحك الآخرون لدعابته، أمّا أنا فقد شعرت بخوف غير عقلانيّ من أن يكتشف السرّ المحفوظ بمنزلي، وشعرت في الوقت نفسه بتواطؤ حميم مع ذلك الجار. الآن، لا يمكنني أن أقول لماذا، بما أنّ أبويّ، إن لم تخنّي الذّاكرة، لم يحدّثاني قطّ لا عن الكنيسة، ولا عن الإكليروس ولا حتّى عن الدّين الّذي -بتحوّله إلى مادّة للتّاريخ المقدّس وقواعد الدّين- يصبح -ببساطة- شيئا عليّ استظهاره، وتلك مهمّة كانا يشاركان فيها أحيانا، وهذا ما جعلني أستنتج أنّ أبويّ كانا يخشيان تلقيني ما كان يعتقدان، وأنا كنت أخشى أن أعرف ما يعتقدان. كان

ذلك شكلا آخر من التّواطؤ مثله مثل الدّولاب الّذي يعيش فيه أبي أو مثل ترمّل أمّي. كلّ شيء كان واقعيّا ولكن ليس حقيقيّا بالمرّة.

هل من المفروض أن تكون لحظة التّنازل هي الّتي تعرف قطف الأزهار المولودة بشجيرة الحياة الشّائكة؟ تساءلت بيني وبين نفسي. وهل يمكنني أن أتحوّل إلى الشّجرة المتينة الّتي انتصبت بفعل التّأرجح بين الخطايا وإعلانات النّدم، بين الظّلال والعودة إلى الطّريق القويم، بين العجرفة والإهانات؟ أعترف أمامك، أبانا، بعد كلّ هذه السّنوات من فصول الشّتاء وحالات الجفاف، أنّي تتبّعت كيف تتشكّل داخلي براعم زهرة قادرة على أن تثمر. وفكّرت في التّخلّي عن وضع الرّاهب وأن ألتحق بالقطيع. كان قد انقضى أكثر من ستّة أشهر على حديثي الأوّل مع إلينا، وتمّت لقاءات أخرى، عن سابق ترتيب -أو بالمصادفة- اختبرت فيها قيمة مشاعري وكذا متانة هذه الصّداقة الّتي أتعهّدها.

إنّ فقدانها لزوجها الّذي لا ينتمي إلى طائفة المكبّلين بمنطقنا التّاريخي، وهو أب لأطفالها، وانعدامَ أخبار ابنتها إلينا الّتي رمت بها الحرب العاصفة إلى الأرض المجهولة الصّامتة، والاضطرارَ القاهر إلى أن تدفع إلى الأمام برعمًا حيّا لكنّه حزين في الآن نفسه، كلّ هذا وأشياء أخرى كثيرة كانت تفسّر عذوبتها المنفلتة، وعدمَ استعدادها للحديث عن أيّ شيء باستثناء الحديث عن ابنها، وسرعتَها في وضع حدّ للّقاءات والحياءَ الّذي كانت تحسّ به عند حديثها عن نفسها. حينها كنت، أبانا، أبرّر ذلك السّلوك مسمّيًا إيّاه وقارا.

ذهبت إلى منزلها عدّة مرات خلال ساعات الدّراسة طمعا في أن تتاح لي فرصة الحديث عن مقاصدي، ولكنّي ما كنت أجدها قطّ هناك. ربّما كان من المفروض أن يجعلني هذا المعطى، المثير للشّكوك بالنّسبة إلى امرأة، آخذُ احتياطي، غير أنّ ذهولي إزاء احتمالات تنمو بشكل طارئ في مستقبلي لم يسمح لي بأن أحلّل طابع الوقائع غير العاديّ.

ورغم أنّ مهمّتي في المدرسة كانت ذات طابع إداريّ، وخرجاتي كانت تبرّرها بالأساس الحاجةُ إلى جمع تبرّعات تضمن السّير الجيّد للنّظام، فقد وبّخني الرّاهب أركاديو، رئيسنا، بسبب سلوكي المستهتر. وكان على صواب. أصبحت الصّلوات تبدو لي كأنّها لن تنتهي، ولم تعد الشّعائر الدّينيّة تولّد لديّ القلق المفروض أن يحسّ به كلّ مخطئ أمام عيني الإله، وثِق، أبانا، أنّه من كلّ قراءاتنا للكتاب المقدّس، ومن كلّ السّاعات الّتي أقضيها متعبّدا، كانت جملة واحدة من المزامير تثبت في ذاكرتي: نهداك غزالتان صغيرتان ترعيان بين السّوسن.

توقّف المصعد في الطّابق الثّالث. كانت *إلينا* بالمطبخ تغسل عدسا وتجمّدت كأنّ ما تقوم به يحدث ضجّة. أمّا ريكاردو الّذي كان منشرحا لأنّه عثر أخيرا على ترجمة مرضية لبيت شعريّ صعب لـ كيتس، فقد ترك أصابعه معلّقة في الهواء فوق حروف الآلة الكاتبة كأنّه بوغت وهو يقوم بشيء ممنوع. وحدها ساعة حائط غرفة الأكل ظلّت تتحرّك بعد أن رنّ الجرس.

كلّ هذه السّكينة تحوّلت إلى رتابة قلقة صامتة. عبرت *إلينا*

الممرّ بصمت إلى أن تأكّدت من أنّ ريكاردو كان يتهيّأ للاختباء داخل الدّولاب. عدّلت من وضع السّبحة الّتي تحجب المفصلات، وقصدت الطّاولة الّتي كان يشتغل عليها زوجها وسحبت كلّ ما كان مكتوبا باليد. فتحت الشّرفة بشكل كامل لتتيح الفرصة للرّبيع كي يدخل، ومع الحرص على ألاّ تحدث أيّ صوت، ذهبت حتّى باب الدّخول. وظلّت تتنصّت منتظرة صوتا يخبرها عن هوية الزّائر، لكنّ الجرس رنّ فجأة من جديد واهتزّ جسدها إلى درجة أنّها لم تتمكّن من أن تتجنّب إطلاق صرخة مقموعة.

كان الطّارق هو الرّاهب *سالفادور* بوجهه المدوّر وصلعته الخفيفة، في الجهة الأخرى من العين المعدنيّة مبتسما وشفتاه مغلقتان وعيناه ليستا مفتوحتين بشكل كامل. كان يقوم بحركة يريدها جذلانة مستعطفة. فتحت *إلينا* الباب ودخل وهو يرتّل: مساء الخير، مساء الخير، مساء الخير...

وبعد أن تجاوز العتبة سأل إن كان بإمكانه الدّخول. وحينها أغلقت *إلينا* الباب وهي تقول: *«تفضّل أيّها الرّاهب»*. ورافقته حتّى غرفة الأكل. لم تدعُه إلى الجلوس لكنّه جلس مع ذلك مشيرا إلى الحرّ الشّديد الّذي يولّده رداؤه. وقد عرضت عليه أن تعطيه كأس ماء لكنّ وجه الضيف استعاد ابتسامته الجذلانة وردّ قائلا: *«أفضّل بعض النّبيذ»*.

وعندما عادت *إلينا* من المطبخ حاملة زجاجة وكأسا، كان رجل الدّين يتفحّص كتبا أخذها من الرّف. وقال شيئا ما غير واضح عن

القراءة والوحدة ورفع الكأس الّتي قدّمت له مردّدا «*على نخبك إلينا*». شرب جرعات صغيرة وسريعة لينتهي بتلمّظ مبتذل مع تنهيدة مطوّلة أرادها مديحا لنبيذ *فال دي بنياس*.

- كنت أريد أن أحدّثك عن *لورينصو*.

- هل حدث له شيء؟

- لا، لا بالعكس. إنه فتى رائع. بإمكانه أن يكون الأوّل في قسمه. لكن خجله...

وشرع في عرض مطوّل حول تعلّم الحياة، وعن الشّجاعة اللاّزمة ليكون الأفضل بين أقرانه (*)، والأفضل في عيني الرّبّ. ربّما غياب الأب...

فسح صمت *إلينا* المجال أمام ثرثرة رجل الدّين الّذي تكلّم عن التّضحية الّتي يعنيها التّعليم، وعن الرّضا الّذي كان يمنحه، وعن ضرورة الانتباه إلى المتفوّقين لإمدادهم بالطّاقة الضّرورية ليصلوا إلى مرتبة الزّعامة في القضايا الكبرى.

- أنا أستطيع أن أمكّنه من الالتحاق بالمدرسة الإكليريكيّة.

ولم تستطع *إلينا* أن تخفي ابتسامة.

- ولكنّه مازال طفلا.

- علينا أن نوجّه؛ *إلينا*، ذلك هو واجبنا وما هو منتظر منّا. هذا لا يلزمه بشيء. سيتلقّى تكوينا رفيعا وسيتهيّأ للمستقبل، وإذا كان *لورينصو* يرغب في ذلك، لا شيء يجبره على أن ينتهي

منشدا في القّداس. انظري إليّ، لقد قضيت اثنتي عشرة سنة في المدرسة الإكليريكيّة وأظنّ أنّي لم أعد أرغب في أن أصبح راهبا...

- أو لست راهبا؟

- لا يا امرأة. أنا شمّاس فقط، خادم الكنيسة، ولكنّي في يوم من الأيّام، سألتقي بمن سأكوّن معها أسرة...

وربّما لتبديد التّعبير عن المفاجأة الّذي علا وجهَها، سأل عن المرحاض فأشارت *إلينا* إلى حيث يوجد واستغلّت غيابه لتتأّكد من أنّه ليس هناك أيّة آثار لوجود *ريكاردو* في المنزل. وتمّ -بالتّدريج- التّعوّد على إزالة أيّ أثر لحضوره: من التّبغ الّذي تخلّى عنه لتجنّب تفسيرات كانت تثار في مكاتب بطاقة التّموين، إلى الدّفاتر المخطوطة الّتي كان زوجها يستعملها في ترجماته الأدبيّة، مرورا بالثّياب الّتي كانت تجفّف بالمكواة دون أن تعَلَّق، وكانت حياة *ريكاردو* قد أصبحت مثل الهواء: كان موجودا لكنّه لم يكن يحتلّ حيّزا في الفضاء.

وعندما خرج الرّاهب سالفادور من الحمّام، كانت بيده شفرة الحلاقة الّتي يستعملها ريكاردو. وتحوّلت نظرة الشّمّاس البذيئة، وهي تتأرجح بين شفرة الحلاقة وعيني *إلينا* وبين عيني *إلينا* وشفرة الحلاقة، إلى استنطاق صامت حيث كانت تتزاحم كلّ الأسئلة وتتدافع كل الأجوبة.

- وهذه؟

- إنّها شفرة حلاقة.

- هذا ما أراه. لن تقولي لي إنّ *لورينصو* قد بدأ يحلق ذقنه.

انتهى تردّد *إلينا* إلى قهقهة كانت تريد خنقها في انطلاقتها واختلط الغضب الّذي كان ينعكس على وجهها باحمرار خجل.

- آه، أيّها الرّاهب، كم هو كبير جهلك بعالم النّساء. ألم يخبرك أحد أنّنا نحلق سيقاننا عندما يقترب فصل الصّيف؟

ولم تتمكّن من أن تفسّر من أين استقت الطّاقة اللاّزمة لتغمز بعين وتبتسم في الآن نفسه.

- إنّ ذلك أحد أسرار دلالنا.

- أنت تحلقين ساقيك؟

- بالطبع. كلّ النّساء تقريبا يفعلن ذلك.

كأنّها تريد أن تأتي بحجّة تؤكّد براءتها رفعت تنّورتها حتّى الرّكبتين لتريه أنّ ما كانت تقوله صحيح.

عندها تقدّم الرّاهب *سالفادور* نحو *إلينا*، قابضا على شفرة الحلاقة في يد، وهو ينظر بتركيز إلى السّاقين اللّتين كانت التّنّورة المرفوعة تسمح برؤيتهما، وانحنى نحوها، كأنّه يريد إنقاذ جرو متخلّى عنه، وأحاط بيده الأخرى ربلة ساقها بوداعة.

كانت اللّمسة اللّزجة لتلك اليد المبلّلة، ووجه ذلك الرّاهب وهو يداعب بخشوع ربلة ساقها، وجلدها المقشعر من أثر التّقزّز، وخشيتها من أن تصرخ، وعجزها عن الدّفاع عن نفسها وغضبها... كلّ هذا جعل *إلينا* تلعن جاذبيّتها.

وبمحاذاة عالمي، كانت هناك قطعة أرض تحوّلت إلى مطرح نفايات. وكانت تقع إلى جانب قاعة سينما الجزائر ومنها كان يمكن سماع الموسيقى التّصويريّة للأفلام المعروضة عبر أبواب من الزّنك تؤدّي إلى الخلاء. ولست أدري لمَ ارتبط ذلك الفضاء القفر -في ذاكرتي- باكتشاف الممنوع.

قرب بوّابة منزلي، كان هناك دكّان فحم مفتوح دائما لرجل من منطقة أستورياس، ضخم الجثّة وبالغ الطيبة ذو أسنان سليمة ناصعة تلمع بالفحم في وجهه المتّسخ على الدّوام. كان اسمه *صفيرينو لاغو* وأتذكّره وهو يحرّك أكياسا من سقاط الفحم والشّظايا وكربون شجرة البلّوط دون توقّف. وكانت زوجته *بلانكا* تبدو كأنّها أرملة. كانت تلبس لباس العزاء دوما وتلتزم الصّمت، تميّزها حركة دائمة دالّة على الألم تجعل الزّبائن يقدّمونسنان

لها العزاء وإن لم يكن أحد يعرف من هو آخر المتوفّين في عائلتها.

كان للفحّام ولدان، *لويس* شابّ له معرفة يعتدّ بها بخصوص أشياء العالم -وكان لا يتردّد في أن يحكم على امرأة تدخّن بأنّها مومس- والآخر لا أتذكّر اسمه (خوان؟) كانت له قدرة على الغضب لا يمكنني أن أنساها. وكانت له أسنان أبيه نفسُها مع عامل الكبر ممّا كان يجعلها تطلّ -وإن كان فمه مغلقا- من بين شفتين لحيمتين، مرتخيتين مبلّلتين. حسنا، ابن الفحّام هذا، أكبر منّا بسبع سنوات أو ثمان، وكان يروق له أن يأخذنا إلى قطعة الأرض في الخلاء لننصت إلى

الأشرطة الصّوتية للأفلام المصنّفة ضمن الدّرجة الرّابعة، أي الأفلام بالغة الخطورة. وأتذكّر أنّه كان هناك تصنيف وضعته السّلطات الكنسيّة لم أتمكّن من فهمه قط: الأفلام المأذون عرضها، وتلك الّتي تعرض بشكل نادر، وأفلام الدّرجة الثّالثة، وأفلام الدّرجة الثّالثة مع تحفظات، وأفلام الدّرجة الرّابعة.

لا أحد منّا كان يفهم مرتكزات ذاك التّصنيف، لكنّه كان عالما لا يحتاج إلى تفسيرات. وفي شبابيك الدّخول، ومع التّذاكر كانت تُباع بفلسٍ واحد أوراق مقوّاة طُبِعت عليها شعارات مرتبطة بالنّبلاء كنّا نسمّيها رموزا. وكانت عليها سكّة على شكل مثلّث في الجزء الأعلى لتعلّق بعروة طيّة صدر السّترة وعلى الواجهة الأخرى يمكن قراءة جملة تقول إنّ ثمن هذا الشّعار مساهمةٌ طوعيّة في إعادة بناء الوطن. ولم نكن نفهم ما يعنيه كلّ ذلك ولكن بما أنّ اللّغة كلّها كانت عبارة عن غلوّ، فالحرب الصليبيّة معناها الحرب والحمر هم الشّياطين، والوطنيّ كان مرادفا للمنتصر، وكان من الطّبيعيّ أن تكون كلمة «طوعيّ» تعني «إجباريّا» بدليل أنّ الحارس لن يسمح لك بالدّخول إذا لم يكن الشّعار بارزا على تذكرة الدّخول.

ولم نكن نذهب إلى السّينما إلاّ لماما، غير أنّنا بفعل سطوة ابن الفحّام الجسديّة، كنّا نظلّ مرابطين إلى جانب أبواب الزّنك الّتي كانت تستعمل لتهوية بهو الأرائك.

كنّا ننصت بخشوع إلى تلك الحوارات الّتي لا ندرك لها معنى، وإلى الموسيقى الّتي كانت تغلّف تلك الأصوات دون أن نفهم أيّ

شيء على الإطلاق، لكنّ ابن الفحّام الّذي لا أتذكّر اسمه، كان يقفز فجأة وهو يضحك بعصبيّة ويقوم بحركات قد أصفها اليوم بالبذيئة ولكنّها كانت تبدو لي في ذاك الوقت مجرّد هلوسات.

ولقد وصلتني بواسطته التّصوّرات الأولى عن شيء كان عليّ أن أخفيه عن والدي. كانت الأسرار تربطني بالنّاس كما تربط الجذورُ الأشجارَ بالأرض. ولم أكن أعرف بالضّبط ما الّذي كان يتشكّل منه سرّي، غير أنّه في الوقت الّذي كان أطفال آخرون يؤمنون بالعذراء أو بفرانكو أو بالبابا أو بالوطن، كنت أومن بأسراري. وينتابني شعور بأنّي في الطّريق إلى أن أصبح حكيما. بدأت أفهم معاني جمل مكتوبة في مراحيض المدرسة ومغزى بعض الحركات الّتي تكشف عنها ملصقات قاعات السّينما، غير أنّ أفكارا عن العلاقة بين أبي وأمّي تلحّ عليّ حينما أكون غائبا. فلقد كان يترك اللّحية تنبت لتحلقها له في الأيّام الّتي يشعلان فيها الموقد -فقط في تلك الأيّام- فيزداد بعدها شيبا، وتصاب أمّي بهزال بفعل حزن لزج قاتم، كلّ ذلك كان يبدو لي بمنزلة مؤشّرات على أنّ أمرا مشؤوما يجري في بيتي. وفي هذه اللّخبطة من التّوجيهات الأخلاقيّة، كان الجسد منفيّا، والأحاسيس الّتي نتلقّاها عبره تعتبر جيّدة إذا ما كانت ثمرة الألم، أو أنّها تولّد متعة فتكون حينئذ رديئة. ذلك أنّ الصحّة كانت مرتبطة بالتّضحية وفي مقابل ذلك كان سبب المرض هو دومًا ترضية الغرائز. كان أمر مّا يتمّ إخفاؤه عنّا نحن الأطفال، فما كنّا نعرف ما الّذي يتعيّن أن نفعله بأجسادنا.

ولئن كان النّوم يغلبني في النّهاية فقد كنت أتظاهر بالنّوم أحيانا

وأرهف السّمع لأعرف متى يمارس والداي فعلتهما، فقد كان من الواضح أنّهما يفعلان شيئا مّا حتّى يصلا إلى تلك الدرجة من التّدهور.

الآن أتذكّر بحنين صمتهما.

كم هو صعب، أبانا، أن ينتصر المرء وتكون النّتيجة أن يتحوّل من جديد إلى ضحيّة. كلّ الرّضا الّذي استشعرته خلال ثلاث سنوات لكوني أنتمي إلى مجموعة المختارين لتوجيه الماء الجهنميّ، كلّ المجد بدأ يتحوّل على التّدريج إلى إخفاق: إخفاق عند تغيير ثوبي الدّينيّ بلباس المحارب، إخفاق عند إخفاء أنفة الصّليبيّ خلف عجرفة التّريبة، إخفاق لكوني وضعت قناعا تحت تمرّد شهوة غير متحكّم فيها، وفشل، في النّهاية، لأنّي لم أنتبه إلى أنّ ما كنت أريد إغراءه كان بصدد إغرائي.

كان هوسي -بكلّ بساطة- أن أنفرد للحظة بـ إلينا. وأخيرا، وجدتها ذات يوم بمنزلها وكانت زيارتي ذات طابع رسميّ لأطلب منها أن تسلّم ابنها إلى الكنيسة لتتعهّد به. تحدّثنا في هذا الموضوع وبشكل فجئيّ، دون أن أعرف كيف وقع ذلك، وجدت نفسي ساجدا قبالتها. لأسباب لا داعي للخوض فيها كانت إلينا قد تركت جانبا سذاجتها لتقف أمامي بحسّيّة قصيّة وهدمت بحركة واحدة كلّ قناعاتي. يولّد جمال الشّر المؤثّر خشوعا أكثر من إثارة الخوف. وشقّت روحي وحدها طريقا في ظلمة اللّيل(*). متخلّى عنها في ظلمة ليلة كنت أجهلها. لماذا جذبتني إلينا وصدّتني في الآن نفسه؟ جننت،

ولست متأكّدا من أنّني عدت إلى جادّة الصّواب.

- *إلينا*، علينا أن نهرب.

- نعم سنذهب.

- يمكننا ترك الطّفل مع أخواله *بمينطريدا*.

- إذا هربنا علينا أن نهرب ثلاثتنا.

- حسنا، لكن لا ينبغي أن ننتظر أكثر.

- نعم، لا يمكننا أن نعيش على هذا المنوال.

- لا، لا يمكن. لدينا بعض المدّخرات.

- سيقرضني أخوالي بعض المال.

- لا، لا تطلب منهم شيئا، سيحاولون معرفة ما يقع.

- طيّب، لن أطلب منهم شيئا ولكن كيف سنتصرّف؟

- أسفار قصيرة جدّا في الحافلات. لن يتجاوز السّفر خمسين كيلومترا. هناك مراقبة أقلّ على الحافلات مقارنة بالقطارات.

- سنتأخّر هكذا بشكل كبير.

- سنتأخّر الوقت الّذي يتعيّن أن نتأخّر. المهمّ أن نهرب نحن الثّلاثة.

- الثّلاثة، حبيبتي.

- حبيبي. علينا أن نصل *إلى ألمريا*، هنالك مراكب صيد يساعد أصحابها على العبور بطريقة سرّيّة إلى المغرب مقابل ثلاثمائة بسيطة.

- ومن أين سنأتي بهذا المبلغ؟
- سأبيع كلّ ما يمكن بيعه.
- بما في ذلك سمكة *ألورانو* الّتي تركها لك أبوك؟
- أجل. لن نستطيع أخذ شيء معنا.
- لا شيء.
- كنت دوما تقول إنّها تميمتنا.
- تميمتنا ماتت.
- *إلينا*، حبّي أنا، حبّي.

في اليوم التّالي، أخذ *لورينصو* رسالة موجّهة إلى الرّاهب *أركاديو* يخبره فيها أنّه سيضطرّ إلى التّوقف عن حضور الدّروس لأنه سيخضع لعمليّة جراحيّة تخصّ اللّوزتين، وأنّ الأمر يتطلّب معالجة قبليّة ويمكن أن يمتدّ غيابه إلى أسبوعين. وصلت الرّسالة إلى يدَي الرّاهب *سالفادور* الّذي سأل الطّفل لمَ توقّفت أمّه عن مرافقته.

- أمّي أيضا تعاني من التهاب اللّوزتين. وليس من المستبعد أنّها سوف تموت.

والسّبب نفسه جعلني لم أسأل قطّ لماذا يعيش أبي داخل دولاب، بما أنّ هذه الأشياء كانت تقع في الجهة الأخرى للمرآة، لم أسأل قطّ لماذا توقّفت أمّي عن مرافقتي إلى المدرسة. في البداية، كانت تتركني على بعد كتلتين من البنايات، وكنت أتابع وحدي ما تبقّى من الطّريق. وبعد ذلك، كانت ترافقني حتّى تقاطع شارعَي *ألكالا* وغويا، وفي النّهاية لم تعد تخرج من المنزل حين أُرسَل إلى المدرسة.

كانت أمّي قد تحدّثت مع قاطعي تذاكر المترو ليأذنوا لي باجتياز الممرّ تحت-أرضيّ لتجنّب تقاطع الطّرق الوحيد الّذي يشكّل خطورة في مسيري، فالبرّغم من أنّ سيارات قليلة كانت تستعمل في تلك المرحلة، كانت عدّة طرق تؤدّي إلى هناك ويتمّ عبورها بسرعة أكبر نظرا إلى اتّساعها. اكتشفت أنّ رائحة المترو تشبه رائحة الثّياب المستعملة، وأنّ له درجة الحرارة نفسها وأنّه مُضاء بالضّوء نفسه الّذي يستعمل عادة في الحجرات المعدّة ليموت فيها المرضى.

كنت أحيانا عندما أخرج باكرا، أنزل إلى الأرصفة وأنتظر وصول القطار. وفي تلك الأنفاق كان يختبئ المصابون بالبرص، وكان صرير العجلات يبدو لي كأنّه صرخاتهم وقد داسهم القطار. كانت أقواس الأفواه السّوداء للأنفاق تجتذبني بقدر ما ترعبني لأنّ عالمي كان في مفترق طرق يمكن أن تصل إليه كل الشّرور. الآن أعرف أنّني كنت خائفا.

قلّت المرّات الّتي كان يخرج فيها أبي من دولابه، كان يظلّ مغلقا على نفسه حتّى في حال وجودنا لوحدنا في المنزل. وكان هذا يروق لي، فعند عودتي من المدرسة كنت أركن إلى جانبه وإلى جانب صمته. وكنّا نظلّ هكذا طوال ساعات إلى أن تقطع أمّي السّكون بأن تقدّم لي قطعة خبز بالشّوكولاتة. تلك الشّوكولاتة الغامقة الّتي كانت كأنّها مخلوطة بالرّمل، بإمكاننا، نحن الأطفال الّذين عايشنا تلك المرحلة، أن نكتب كتابا حول طبيعة الحِيل الّتي كانت تجعلها قابلة للأكل: شرب الحليب عندما تكون في منتصف عمليّة المضغ،

وبلّ الخبز بالماء كي يندمج غبار الشّوكولاتة بعضه ببعض، وما كان شائعا هو أن تقضمها شيئا فشيئا تاركا لها ما يكفي من الوقت حتّى تتشبّع بالرّيق.

ومع مرور الأيّام، أصبح أبي يقضي وقتا أطول بالدّولاب. ووصل الأمر بي وبأمّي إلى الأكل على مائدة المطبخ فيما يأكل هو في مخبئه. وكان يمضغ بتقتير يدفع إلى اليأس كأنّه كان يريد أن يتجنّب الصّوت الّذي يحدثه خبز الجاودار عندما يُمضَغ. أصبح كلّ شيء ملطّخا بالحزن. وأحسست بالذّنب لأنّ ذلك الدّولاب بدأ يكتسب الرّائحة السّائدة في المترو، وكان يبدو لي أنّ ذلك سينتهي بجلب المرضى ذوي البرص.

غير أنّ ذهابي إلى المدرسة وعودتي وحدي كانا يمنحاني لحظات تأثّر مملوءة جرأة. وكان بإمكاني التّوقّف عند واجهات المتاجر والنّظر بوقاحة إلى مَن هم أضعف منّي. وفي الصّباح -عند الذّهاب- غالبا ما كنت أنزل إلى أرصفة المترو. وأتوقّف في طريق العودة لتأمّل عجوز بحدبة كانت منهمكة في نسج جوارب إلى درجة أنّه لولا حركة يدها المتواصلةُ لكنت أقسمت أنّها قُدّت من خشب كالقدّيسين الموجودين بمذبح الكنيسة. وعند العودة إلى المدرسة بعد الغداء، كنت أنزل مرّة أخرى إلى جحيم المترو، وعند عودتي إلى المنزل في المساء، كنت أجرّب طريقا يعبر -بالضّرورة- ميدانا كنّا جميعا نطلق عليه اسم ساحة *طوروس بييخا* حيث اكتشفت أنّ الرّاهب *سالفادور* كان يتبعني مرتديا لباسا مدنيّا.

أبانا؛ جريح أنا في كبريائي وخجل في الآن نفسه من الهواجس الّتي كانت تشكّك في اختياري الكهنوتيّ، طلبت إذنا من المدرسة كي أغادر، بشكل مؤقّت، الدّيَر والتّدريس، واستقررت بالإعانة الّتي قدمتها لي أسرتي في نزل كانت تسيّره متعبّدة عجوز بكنيسة سانتا خيما. حينها بدأت أشعر بأنّ حقّا مّا سلب منّي. لقد سلبت امرأة إيماني، واختياري وانتصاري، ورجولتي، كانت ترفض أن تمنحني ما لم أتمكّن قطّ من طلبه منها. لكنّها كانت تصدّني من منطلق فشلها وكفرها وهزيمتها، والآن أعترف بذلك، لقد كان من منطلق جمالها. كيف لا مرأة مهدّمة بسبب كلّ هذه الخيبات، أن تظلّ غير مبالية تجاه اعترافاتي؟ كنت في حاجة إلى جواب.

بدأ الأثاث المتبقّي بمنزل *آل ماصو* في الاختفاء تدريجيّا. أخذ بائع حدائد الشّمّاعة المصنوعة من خشب القسطل، واشترت جارة لطيفة متواطئة -كانت تعيش بالطّابق الأخير- آلة الخياطة، ودفع بائع للثّياب البالية ثمنا بخسًا مقابل مُلاءات الكتّان وفرشة سرير مخيطة باليد شكّلت جزءا من مهر الجدّة ولم تستعمل إلاّ في ليلة زفاف أمّ *إلينا* وليلة زفاف *إلينا* نفسها. كانت لاتزال بها رائحة العشق والنّفتالين. فرشة شبيهة بهذه كانت قد أهديت لابنتها عندما هربت مع ذلك المراهق قبيل نهاية الحرب. ولم يرغب أحد في أخذ مائدة الأكل لحجمها الكبير، وكانت آلة الكتابة من نصيب محاسب بالشّركة الإسبانيّة الألمانيّة الّتي كان *ريكاردو* ينجز لها ترجمات.

إنّ احتمال أن يمرض *ريكاردو* كان يجعل من الهروب أمرا

مستعجلا. فقد كان كلّ أصدقائه دون استثناء، قد ماتوا أو اضطرّوا إلى اللّجوء إلى المنفى، ولن تكون لهم إمكانيّة استضافة أحد إذا ما تحوّل ضعف زوجها إلى شيء أكثر خطورة.

كانا قد جمعا من المال ما يكفي لبداية السّفر، لكنّ ذلك المنزل الموحش كان يجعل *ريكاردو* يظلّ مشدودا عليه بالدّولاب إلى درجة أنّه ما كان يخرج حتّى للنّوم. وكان الطّفل، الّذي توقّف عن الذّهاب إلى المدرسة، يقضي السّاعات الطّوال قرب والده يقرأ له فقرات من *لويس كارول* ليسرق منه ابتسامة ويلزم الصّمت كلّما توقف المصعد في الطّابق الثّالث. وجاء يوم مملوء بالصّمت والفراغات طرق فيه أحدهم الجرس، انتظر الجواب الّذي لم يأت وألحّ بضغطات مطوّلة على الجرس أوقفت كلّ خفقان. الدّقات على الباب والصّرخات الّتي يسمع صداها في السّلالم جعلت آليّات الفرار تشتغل دون أن يكون هنالك فرار. أغلق *ريكاردو* على نفسه باب الدّولاب، ولجأ *لورينصو* إلى المطبخ ورتّبت *إلينا* شعرها بيدها قبل أن تفتح الباب. وظلّ الرّاهب *سالفادور*، بلباسه غير الدّينيّ وغير المرتّب، مضطربا دون حراك حين رأى أنّ *إلينا* فوجئت بضوضاء الزّيارة:

- جئت لرؤية *لورينصو*. كيف حاله؟

الآن أنا نادم لأنّي لم أخبر أبويّ بأنّ الرّاهب *سالفادور* كان يراقبني، لذا ففي اليوم الّذي جاء فيه إلى المنزل على حين غرّة لم يكونا مستعدَّين. وصل وهو يركل الباب ويصرخ. لم تجد أمّي مناصا من أن تتركه

يدخل. أتذكّر أن المنزل كان كأنّه بلا أثاث لأنّ غرباء أخذوه لأسباب لم أتجرّأ على السّؤال عنها ولكنّي كنت أربطها بفقرهم لا بفقرنا.

دخل بحماس وهو ينادي عليّ ولم يتوقف عن الصّياح إلاّ عندما عثر عليّ بالمطبخ وأنا أتظاهر بقراءة *«أليس في بلاد العجائب»*. سألني عن حالي، ونزع الكتاب من بين يديّ، وأرجعه إليّ في الحين، وطلب منّي دون أن ينتظر منّي جوابا أن أتركه يتحدّث بعض الوقت مع أمّي.

خلال سنوات عديدة، عذّبني الإحساس بالذّنب لأنّي استحضرت المرضى بالبرص لعلّهم يأكلون هذا الممسوس الّذي كان يؤذي أمّي، ولأنّي عندما جئت مرعوبا حينما سمعت صرخاتها، رأيت كيف أن أبي بمظهر بائس وعلامات العجز بادية عليه، كان مرتميا على الرّاهب *سالفادور* الّذي كان بدوره يحاول الاقتراب من أمّي وهي تحمي وجهها بيديها لتجنّب نفَس ذلك الخنزير الّذي يضع أنفه قرب عنقها. وكان أبي قد خرج من الدّولاب.

صحيح، ليس هناك عفو إن لم تتمّ إراقة الدّم(*). الآن أفهم المغزى العميق لرسالة العبرّيين هاته.

لقد كنت أداة لإقرار العدل. لهذا انحزت إلى جانب من قاموا بغزو الإمبراطوريّات ومن أغلقوا فم الأسود(*)، إلى جانب من هربوا على حافّة السّيف(*). مثل خيديون وباراك وخيفطي، وسامسون نفسه، كان بين يديّ السّلاح لمعاقبة الّذين - بمخالفتهم إرادة الرّبّ - مازالوا يبحثون عن وطن(*).

ومدفوعا بقوّة ما كنت أعرف أنّي أملكها، أبانا، هاجمت هذا المعبد المحروس بعناية وقد سعت هذه المرأة إلى أن تمنعني منه. وكان جزء يسير من غضبي كافيا لكي يخرج من مخبئه المحرّض على الشّر المدبر الخسيس لكلّ هذه الشّبكة من الأكاذيب. وكان زوج إلينا مختفّيا في هذا المنزل.

ارتمى ريكاردو- وهو يصرخ بشيء غير مفهوم - على الرّاهب سالفادور الّذي استطاع أن يقف وهو يحمله على كتفه دون أن يتبيّن ما الّذي كان يحدث. وعندما تمكّن من التّخلص من ذلك الشّخص الطّارئ الّذي كان يتمسّك بعنقه كأنّه يريد خنقه، كانت صفعة منه كافية لكي يحلّق مَن هاجمه بشكل تامّ في الهواء. وللحظات تغلّبت الدّهشة على الغضب واستدار رجل الدّين الّذي يرتدي لباسا عاديّا نحو لورينصو الّذي كان مذهولا أمام الباب، وسأله:

- من يكون هذا الرّجل؟

أجاب الطّفل:

- إنّه أبي.

وركض إلى جانب إلينا الّتي شرعت في نوبة بكاء كأنّها تحتضر وكانت تمشي على أربع لنجدة زوجها. عندئذ بدأ الرّاهب سالفادور في الصّراخ مطالبا بحضور الشّرطة وهو يتراجع في الممّر وذراعاه ممدودتان كأنّه يريد قطع الطّريق على جيش من الشّياطين الرّاغبة في الهرب.

كان أبي يبدو مفرط الهزال بالقياس إلى بدانة الرّاهب *سالفادور*. ركعت أمّي أمام جسد أبي الممدّد، وعندما اقتربت أخذتني في خليط

بائس شكّلناه معا وحافظت على أجسادنا مضغوطة كأنّها كانت تريد حجبنا عن كلّ النّظرات. وعندما استرجع أبي ما يكفي من القوى ليعانقنا بدوره، أخذْنا ثلاثتنا في بكاء أتذكّره كأنّه دام سنوات. ولكن لم يكن هناك ما يكفي من سنوات للجميع. الدّولاب، المخبأ، الأكاذيب، وكلّ حالات الصّمت كانت قد وصلت إلى نهايتها.

تمكّن ريكاردو من الوقوف بصعوبة لأنّ الضّعف والألم وثقل زوجته وابنه كانت تحول دون ذلك، غير أنّه عندما تبيّن أنّه يستطيع المشي، تقدّم في الممرّ متعقّبا ضجيج صرخات الشّماس الّذي كان قد فتح جميع النّوافذ وهو يصرخ طالبا أن يقع إبلاغ الشرطة.

وبدأت تظهر، شيئا فشيئا، وجوه خلف ستارات نوافذ السّاحة ولكن لا واحدة فتحت خشية انتقال هذا الجنون إلى منازلهم.

شعرت بقوة *إلهيّة* بذراعي وغضب في الحنجرة. ولكنّي كنت أريد عدلا لا انتقاما. كان الشّرّير يريد تكسير كبريائي ويبحث عن طريقة لإهانتي.

الآن لست متأكّدا ممّا أتذكّره، ذلك أنّني على الرّغم من رؤية أبي جالسا وهو يمدّ رجليه على إطار إحدى نوافذ الممرّ، ومع أنّي أسمعه وهو يودّعنا بصوت عذب وهادئ، فإنّ أمّي تقول إنّه رمى بنفسه في الفراغ دون أن ينطق بكلمة.

انتحر، أبانا، لكي يتحمّل ضميري مسؤوليّة التّيه الأبديّ لروحه، ليسلبني مجد إقراري للعدل.

تردّد ريكاردو للحظة قبل أن يلقي بنفسه إلى تلك السّاحة الّتي قضى وقتا طويلا يحمي نفسه منها. وأخذ وقتا كافيا، وهو يتوجّه نحو الفراغ، لينظر إلى *إلينا* وابنه مع ابتسامة حزينة تشبه الابتسامات الّتي تستعمل عادة في الوداع الحزين.

لا بدّ أنّها على صواب لأنّني لم أتمكّن قطّ من نسيان وجه أبي وهو ينجذب نحو الفراغ بوجهه الباسم بينما تلتهم السّاحة جسده المهمل، وإن كان هذا مستحيلا لأنّ قامتي ما كانت تسمح لي حينها بأن أطلّ من تلك النّافذة.

هنا ينتهي اعترافي، أبانا. لن أعود إلى الدّير، وسأحاول أن أعيش تبعا للتّعاليم المسيحيّة خارج الرّهبنة. سامحني إذا كانت رحمة الإله تجيز ذلك. سأكون عنصرا إضافيّا ضمن القطيع، ذلك أنّني سأعيش -مستقبلا- باعتباري عنصرا إضافيّا بين أزهار عباد الشّمس العمياء.

ألبرتو ميندیس

أزهار عباد الشمس العمياء

رحل الكاتب ألبرتو ميندیس قبل أن يشهد نجاح عمله الأدبي الوحيد «أزهار عباد الشمس العمياء»، فكان موته تجسيدًا لموضوع روايته التي تراوح بين الذاكرة والألم.

رواية عن شخصيات مهزومة ومأزومة. جندي أسير، شاعر هارب، راهب يقع في حب امرأة بينما يختبئ زوجها في خزانة... والكاتب يضع الجميع أمام المرآة، يضع الثوابت على المحك ويضع الذاكرة والألم في مواجهة الموت والحياة معا.

لماذا وقع ما وقع؟ وهل يمكن ألاّ يقع من جديد؟ تضيء الرواية بشكلٍ باهرٍ مرحلةً قاتمة من تاريخ إسبانيا، فضّل المجتمع الإسباني لمدّة طويلة ألاّ يتأمّلها، هي مرحلة الحرب الأهليّة، لذا ساد ما يشبه البياض، وظلّت الذاكرة الجمعيّة متشنّجة، بعد طيّ الصفحة دون قراءتها بشكل كامل.

وعلى الرغم من الأجواء القاتمة التي تهيمن على الرواية، فهناك احتفاء بالإبداع والمبدعين، هناك شاعر ينشد أشعاره بين الرصاص، ومترجم لا يغادر منزله، وجنديّ يقضي وقته في رسم أعلام ملوّنة... مبدعون يضيئون ليل الهزيمة وإبداعات تؤكّد أنّ جوهر الإنسان عَصِيّ على الاستسلام.

عبداللطيف البازي

ISBN: 978-9938-24-005-4